تعريف التفسير وأنواعه

أ.د. منيع عبد الحليم محمود
عميد كلية أصول الدين
بالقاهرة- جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف التفسير وأنواعه

أ.د/منيع عبد الحليم محمود

عميد كلية أصول الدين بالقاهرة – جامعة الأزهر.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين ، وبعد:

فلقد حظى القرآن الكريم وهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد – حظى بالتفاف أعلام الأمة الإسلامية حوله لفهم نصوصه المطهرة والعمل بما تتضمنه من أحكام عديدة فيها صلاح الحال والمآل لهذه الأمة الكبيرة.

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)(الأنعام: من الآية٣٨)

ولقد تنوعت المصادر التى استقى منها المفسرون مناهجهم لفهم كتاب الله لمحاولة التعرف على فهم دقائقه وإبرازها فى صورة لائقة لتكون فى متناول الإنسان المسلم الذى يحب كتاب الله تلاوة وفهما والعمل بما يحويه هذا الكتاب من خيرى الدنيا والآخرة، ولقد اعتمد المفسرون على مصادر عديدة تحددت منها مناهجهم وتعددت بتعدد تلك المصادر.

وكان أهم تلك المصادر:

١- ما أثر عن رسول الله ﷺ فى بيان معنى المجمل من القرآن وإيضاح المعنى القرآنى وتقريبه.

فعن ابن عباس قال : سأل رجل رسول الله ﷺ .

قال : أرأيت قول الله :

(كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ) (الحجر:٩٠)

قال : اليهود والنصارى.

قال: (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) (الحجر:٩١)

ما عضين؟

قال : "آمنوا ببعض وكفروا ببعض"

وقد فسر رسول الله ﷺ الآية الكريمة.

(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ) (الرحمن:٦٠)

بقوله : جل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة.

ويروى أن أبا بكر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

(المائدة: من الآية١٠٥)

وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه . وأبو بكر رضى الله عنه يقول: يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية؟

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

(النساء: من الآية١٢٣)

فكل سوء عملنا يجزينا به؟

فقال رسول الله ﷺ :

غفر الله لك يا أبا بكر، الست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن، ألست تصيبك اللأواء؟

– قال : بلى .

– قال : فهو ما ما تجزون به .

ولقد عرف هذا النوع الذى برز فى تفسير بعض المفسرين بالتفسير بالمأثور، ومن أهم مصادره التى يعتمد عليها (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور) للإمام جلال الدين السيوطى– حيث اعتمد على ما أثر عن رسول الله ﷺ، وصحابته الأجلاء فى تقرير المعانى لكثير من آيات القرآن الكريم ومن أبرزهم ابن عباس رضى الله عنه الذى حظى بصحبة رسول الله ﷺ خادما ومتعلما مع حظوته بدعاء الرسول ﷺ فكان فقيه الأمة وحبرها الذى لا يجارى علما وفقها فى الدين ومعرفة بالتأويل.

ولقد كان القرآن الكريم، ولا يزال محوراً للثقافة الإسلامية منذ أن تألفت أمة بقيادة رسول الله ﷺ. جمعها على التوحيد لله سبحانه وتعالى وخلافته فى الأرض ، فرأى المسلمون فى آيات القرآن الكريم حثا على النظر والتأمل فيه وتدبر آياته:

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ)(سورة ص:٢٩) .

(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ)(محمد: من الآية٢٤)

ومن ثم نشأ– زيادة على التفسير بالمأثور : (التفسير بالرأى) القائم على التدبر والفهم لكتاب الله سبحانه وتعالى والاستعانة فى ذلك بالعلوم الخادمة لهذا الغرض الجليل وهى كثيرة تعددت وتنوعت فمنها علوم العربية نحوها وصرفها وبلاغتها وما روى عن رسول الله ﷺ قولا وعملا وغير ذلك من العلوم الكثيرة.

واختلفت أنظار المفسرين وطرقهم ومناهجهم فى التفسير تبعا لاختلاف مشاربهم. فمنهم من غلبت عليه النزعة الفكرية العقائدية فتوسع توسعا كبيراً فى شرح الآيات المتصلة بهذه المعانى، ومنهم من غلبت عليه النزعة الفقهية الشرعية فتوسع توسعا كبيراً فى هذه النواحى وهكذا من توسع فى القصص والأخبار ومن توسع فى الأخلاق والتصوف والمواعظ وآيات الله فى الأنفس والآفاق وغير ذلك.

كذلك كان من المفسرين من أطال ومنهم من أوجز واختصر ومنهم من توسط بين هذا وذاك.

ولقد ترك هؤلاء وهؤلاء ثروة علمية ضخمة. أبانت عن جهود أمة... خدمت كتاب ربها وعنيت به عناية فائقة.. لا يسبقها فى ذلك أمة: حفظا وضبطا وشرحا واستنباطاً لمسائل الشريعة الغراء لتكون الأمة الإسلامية كما أراد الله لها خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر وتؤمن إيمانا حقيقيا بالله سبحانه وتعالى.

ولم تقف الحركة الفكرية عند المسلمين يوما بالنسبة لكتاب الله سبحانه بخاصة فى هذا العصر الحديث الذى امتاز بالتقارب بين الأجناس . وتكاثرت وسائل الاتصال فيه بين الأمم والشعوب وانتعشت فيه وسائل العمران البشرى على وجه العموم، وما زالت هذه المناهج فى تفسير القرآن إلى الآن على ما كانت عليه فى السابق من تفسير بالمأثور ، وتفسير بالرأى ، وتفسير جامع بين المأثور والرأى، وما زال القرآن هو الكوكب الدى الذى يضئ الطريق للسالكين، وينشر ضياءه فى الخافقين ، أما ما أضافه العلماء فى العصر الحاضر إلى ذلك، فهو ما يتصل بما أشار إليه القرآن الكريم من أفكار علمية، وحقائق كشف عنها التقدم فى عصرنا

الحاضر، ويسرف بعض الناس فى ذلك فيحملون القرآن ما لا يحتمل أو يخرجون باللفظ عن معناه الذى يتطلبه السياق.

وعلى كل حال فهى- إن حسنت النية – محاولات فيها اجتهاد يسير فى إطار الآية القرآنية الكريمة:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

(فصلت: من الآية٥٣)

وسنعرض فى أحاديثنا التالية لجهود العلماء فى كشف أسراره وتوضيح معانيه. وتوجيه الأبصار إلى النور الذى يحتويه.

الواحدى النيسابورى
وأسباب النزول

هو على بن أحمد بن محمد بن على الواحدى النيسابورى. الأمام الكبير أبو الحسن كان أبوه من التجار فتهيأ له طلب العلم والأخذ منه. فأخذ العربية عن أبى الحسن القهندزى واللغة عن أبى الفضل أحمد بن محمد بن يوسف العروضى صاحب أبى منصور الأزهرى، وسمع من أبى الطاهر الزيادى وأبى بكر أحمد بن الحسن الحيرى وأبى إبراهيم إسماعيل بن إبراهيم الواعظ ، وعبد الرحمن بن حمدان النصرونى، وأحمد إبراهيم النجار وخلق.

وداب الواحدى فى طلب العلم، وجد فيه حتى لقد قيل عنه: واحد عصره فى التفسير وكان له من المؤلفات الكثيرة فى التفسير وغيره،ومن مؤلفاته فى ذلك.

البسيط ، والوسيط ، والوجيز ، وكلها تفسير للقرآن الكريم، فالبسيط فى نحو ستة عشر مجلدا، والوسيط فى أربعة مجلدات ، والوجيز فى أقل من ذلك:

ومنها: أسباب النزول وهو موضوع حديثنا وهو مطبوع بمصر محقق.

ومنها : التحبير فى شرح الأسماء الحسنى.

ومنها : شرح ديوان المتنبى .

ومنها : الدعوات.

ومنها : المغازى.

ومنها : الأغراب فى علم الأعراب

ومنها : كتاب تفسر النبى ﷺ

ومنها : شرح ديوان المتنبى.

وكان له شعر مليح، واختيار طيب لما ينقل ، فمن تفسيره فيما نقله التاج السبكى فى طبقاته ما قاله فى الوسيط فى تفسيره سورة القتال عند الكلام على قوله تعالى: (وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)

أخبرنى أبو الحسن محمد بن أحمد بن الفضل بن يحيى، عن محمد بن عبيد الله الكاتب قال:

قدمت مكة، فلما وصلت إلى طيزناباذ ذكرت بيت أبى نواس:

كرم ما مررت به إلا تعجبت ممن يشرب الماء

فهتف بى هاتف اسمع صوته ولا اراه:

وفى الجحيم حميم ما تجرعه حلق فابقى له فى البطن امعاء

وفى تفسير "ألم نشرح " نقل بسند عن أبن العتبى قال:

كتاب ذات ليله فى البادية بحالة من الغم. فألقى فى روعى بيت من الشعر. فقلت.

ارى الموت لمن أصـ بح مغموما له اروح

فلما جن الليل سمعت هاتفا يهتف فى الهواء .

ألا ايها المرء الـ ذى الهم به برح

وقد انشد بيتا لم يزل فى فكره يسبح

إذا اشتد بك الأمر ففكر فى ألم نشرح

فعسر بين يسرين إذا ابصرته فافرح.

وقد نقل الواحدى عن الشعبى قال:

فرق الله تنزيله فكان بين أوله وأخره عشرون أو نحو عشرين سنه أنزله قرآنا عظيما وذكرا حكيما وحبلا ممدودا، وعهد معهودا ، وظلا عميما، وصراطا مستقيما، فيه معجزات باهرة وآيات ظاهرة. وحجج صادقة. ودلالات ناطقة، دحض به حجج المبطلين . ورد به كيد الكائدين. وايد به الاسلام والدين فلمع منهاجه. وثقب سراجه. وشملت بركته ، ولمعت حكمته على خاتم الرسالة، والصادع بالدلالة، الهادى للأمة، الكاشف للغمة الناطق بالحكمة، المبعوث بالرحمة ، فرفع اعلام الحق، واحيا معالم الصدق، ودفع الكذب ومحا اثاره . وقمع الشرك وهدم مناره. ولم يزل يعارض ببيناته المشركين، حتى مهد الدين، وابطل شبه الملحدين ، ﷺ صلاة لا ينتهى أمدها، ولا ينقطع مددها وعلى اله وأصحابه الذين هداهم وطهرهم.

أما كتابه أسباب النزول فهو من أحسن المؤلفات فى هذا الباب وقد جمع فيه تقريبا جميع المرويات من الحديث وأقوال الصحابة والتابعين فى سبب نزول الآيات. وقد رتبه سورة بعد سورة. على ترتيب المصحف ويذكر فى كل سورة منها ما ورد من سبب نزول الآيات بها فليس كل آيه ورد بها سبب نزول عنده ولكنه عند ذلك فى كثير من الآيات مع ذكر السند الذى يوثقها.

وهاك نموذجا من أسباب النزول:-

قول تعالى:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(الصف:١)

أخبرنا محمد بن جعفر. حدثنا محمد بن عبد الله بن زكريا، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الدغولى. قال: حدثنا محمد بن بن بهيجى. حدثنا محمد بن كثير الصنغانى عن الأوزاعى عن يحيى بن كثير، عن ابن سلمة عن عبد الله بن سلام:

قال:

قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذكرنا وقلنا:

لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله تبارك وتعالى عملناه . فأنزل الله تعالى:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(الصف:١)

إلى قوله:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)(الصف:٤)

إلى آخر السورة فقرأها علينا رسول الله ﷺ.

وفى سورة الفتح: قوله عز وجل:

(لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) إلى آخر الآية.

أخبرنا سعيد بن محمد المقرى قال: حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد المدينى. قال حدثنا أحمد بن عبد الرحمن السقطى قال: حدثنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا همام عن قتادة عن أنس قال:

لما نزلت:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)(الفتح: من الآية ١، ٢)

قال أصحاب رسول الله ﷺ: هنيئا لك يا رسول الله ما أعطاك الله، فما لنا؟ فأنزل الله تعالى:

(لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ....)(الفتح:الآية ٥)

الكشاف عن حقائق التنزيل
وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

مؤلفه هو : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى – الملقب بـ "جار الله" وقد كان حنفى المذهب. معتزلى العقيدة.

ولقب بجار الله، لأنه ذهب إلى مكة وجاور بها زمنا.

أما مولده: فكان فى رجب سنه ٤٦٧ هـ فى قرية من قرى"خوارزم" تسمى "زمخشر" ومن هنا كان انتسابه إليها فقيل له: "الزمخشرى"

رحلته:

وقد دأب الزمخشرى على السفر والانتقال من مكان إلى مكان. فقد سافر إلى بغداد . وسافر إلى " خراسان" عدة مرات. وسافر إلى الأرض المقدسة. وأقام بها طويلا. وألف فيها كتابه" الكشاف " الذى يقول عنه: إنه ألفه فى مدة مقدارها مدة خلافة أبى بكر رضى الله عنه أى سنتان وبضعة أشهر. انه يقول:

ووفق الله وسدد ففرغ منه فى مقدار مدة خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وكان يقدر تمامه فى أكثر من ثلاثين سنة. وما هى إلا آية من آيات هذا البيت المحرم. وبركة أفيضت على من بركات هذا الحرم المعظم. اسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سببا ينجينى ونورا لى على الصراط يسعى بين يدى ويمينى . ونعم المسئول..."

لقد ألفه الزمخشرى فى أواخر عمره، وألفه بعد أن أجرى تجربة فى التفسير كانت ناجحة، وذلك أنه طلب إليه إملاء تفسير ويقول عن ذلك:

فأمليت عليهم مسألة فى الفواتح. وطائفة من الكلام فى حقائق سورة البقرة. وكان كلاما مبسوطا كثير السؤال والجواب. طوف بالذيول والأذناب. وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم وأن يكون لهم منارا يحجونه، ومثالا يحتذونه....."

ونجحت هذه التجربة. فأخذ الناس يفدون إليه ليأخذوها عنه، ويسافرون إليه ليستفيدوا بها منه. ثم – لما حط رحاله بمكة- شرع فى تفسيره "الكشاف" ولم يؤلفه على نسق التجربة السابقة وإنما: "فى طريقة

أخصر من الأولى- كما يقول – مع ضمان التكثير من الفوائد والفحص عن السرائر".

توفى الزمخشرى سنه ٥٣٨ هـ بجرجانية خوارزم.

أما كتابه فإن الناس يقولون عنه عادة: " الكشاف للزمخشرى" وهى كتاب أثار- وما زال يثير- الاستحسان الجم. والنقد اللاذع إذ أن صاحبه يوصف بوصفين ظاهرين يعلنهما على الملأ ويذكرهما دون خفاء.

أما أحد هذين الوصفين فهو : أنه يتمذهب بمذهب أهل الاعتزال ويعتز به إلى درجة أنه كان أحيانا إذا قصد صاحبا له. واستأذن عليه فى الدخول يقول لمن يأخذ له الأذن:

" قل له : أبو القاسم المعتزلى بالباب"

ويركز على كلمة "المعتزلى....."

وقد بدأ تفسيره منذ الكلمات الأولى على مذهب الاعتزال وسار فيه من أوله إلى آخره واضعا نصب عينيه هذا المذهب. ففسر الآيات التى اختلف فيها بين أهل السنة وأهل الاعتزال على طريقة المعتزلة. وأسرف فى ذلك.....

والقرآن الكريم ليس كتاب مذهب. فإذا وضعت الأساس عند التفسير على طريقة معينة. واتخذت ذلك شعارا فقد ملت عن شرعة الأنصاف.

ومن هنا كان النقد المستفيض من قمم علماء أهل السنة.

أما الوصف الثانى- الذى ظهر فى وضوح فى التفسير وفى صاحب التفسير:

فهو هذا النوع من بيان اعجاز القرآن فى بلاغته وفصاحته، وإيضاح أنه حقيقة من كلام رب العالمين ، وليس للبشر إلى مثله من سبيل ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

ولقد أعد الزمخشرى نفسه لهذا إعدادا كاملا:

لقد أعد له لغة. وأعد له بلاغا وبيانا، وأعد له أسلوبا وفصاحة وأعد له نحوا وصرفا..

ولكن الذى يركز عليه صاحب الكشاف ولا يرى من اتقانه مناصا للمفسر هو : علم المعانى. وعلم البيان وما من شك فى أن التفسير يحتاج إلى علوم جمة نترك للزمخشرى نفسه بيانها. أنه يقول عن التفسير:

" لا يتم لتعطيه واجالة النظر فيه كل ذى علم- كما ذكر الجاحظ فى كتاب نظم القرآن – فالفقيه ان برز على الاقران فى علم الفتاوى والأحكام والمتكلم وان بز الدنيا فى صناعة الكلام، وحافظ القصص والاخبار وان كان من ابن القرية احفظ (أحد فصحاء العرب) والواعظ وان كان من الحسن البصرى أوعظ والنحوى وان كان انحى من سيبويه واللغوى وان علك اللغات بقوة لحيية لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق . ولا يغوص عن شئ من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن وهما: علم المعانى وعلم البيان. وتمهل فى ارتيادهما آونة، وتعب فى التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهم همة فى معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله – بعد أن يكون أخذ من سائر العلوم بحظ جامعا بين أمرين: تحقيق – وحفظ – كثير المطالعات طويل المراجعات، قد رجع زمانا، ورجع إليه ورد عليه فارسا فى علم الأعراب مقدما فى حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها- يقظان النفس دراكا للمحة وإن لطف شأنها ، منبها على الرمزة وإن خفى مكانها لاكزا جاسيا ولا غليظا جافيا ، متصرفا ذا دارية بأساليب النظم والنثر، مرتضى غير ربض بتلقيح بنات لفكر ، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويرصف . طالما دفع إلى مضايقة. ووقع فى مداحضة ومزالقه"

ولقد أعجب الزمخشرى بتفسيره حتى أنه ليقول فيه شعرا، منه:

إن التفاسير فى الدنيا بلا عدد ... وليس فيها لعمرى مثل كشافى
إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته ... فالجهل كالداء والكشاف كالشافى.

وربما كان صدق ما قيل فيه هو كلام الشيخ حيد الهروى. فانه وفاه حقه فيما هو عليه من البلاغة البيان، وذلك حق لا يمارى فيه انسان ، ثم بين ما أخذ عليه وهو حق أيضا لا ينكره منصف ، أما ما الزمخشرى- فيما رأى الشيخ الهروى- فإنه يقول:

" إن كتاب الكشاف عالى القدر، رفيع الشأن لم ير مثله فى تصانيف الأولين ، ولم يرد شبيهه فى تآليف الآخرين ، اتفقت على متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين ، واجتمعت على محاسن أساليبه الأنيقة السنة الكلمة من المفلقين ، ما قصر فى قوانين التفسير وتهذيب براهينه. وتمهيد قواعده، وتشييد معاقده.

وكل كتاب بعده فى التفسير- ولو فرض أنه لا يخلو عن النقير والقطمير إذا قيس به – لا تكون له تلك الطلاوة. ولا يوجد فيه شئ من تلك الحلاوة، على أن مؤلفه يقتفى أثره . ويسأل خبره وقلما غير تركيبا من تراكيبه إلا وقع فى الخطأ والخطل، وسقط من مزالق الخبط والزلل، ومع ذلك كله إذا فتشت عن حقيقة الخبر، فلا عين منه ولا أثر، ولذلك قد تداولته أيدى النظار فاشتهر فى الأقطار كالشمس فى وسط النهار.

أما ما يؤخذ عليه فهو أمور منها:

أنه كلما شرع فى تفسير آية من الآيات القرآنية مضمونها لا يساعد هواه ومدلولها لا يطاوع مشتهاه: صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة، وتعسفات جامدة، وصرف الآية – بلا نكتة بلاغية لغير ضرورة- عن الظاهر، تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى.، وليته يكتفى بقدر الضرورة ، بل يبالغ فى الاطناب والتكثير لئلا يتهم بالعجز والتقصير، فتراه مشحونا بالاعتزالات الظاهرة التى تتبادر إلى الافهام، والخفية التى لا تتسارق إليها الأوهام بل لا يهتدى إلى حبائله إلا وراد بعد وراد من الأذكياء الحذاق – ولا ينتبه لمكائده إلا واحد من فضلاء الافاق، وهذه آفة عظيمة، ومصيبة جسيمة.

ومنها: أنه يطعن فى أولياء الله المرتضين من عباده، ويغفل عن هذا الصنيع لفرط عناده، ونعم ما قال الرازى فى تفسير قوله تعالى: "يحبهم ويحبونه": خاض صاحب "الكشاف " فى هذا المقام فى الطعن فى أولياء الله تعالى. وكتب فيها مالا يليق بعاقل أن يكتب مثله فى كتب الفحش، فهب أنه اجترأ على الطعن فى أولياء الله تعالى. فكيف اجتراؤه على كتبه ذلك الكلام الفاحش فى تفير كلام الله المجيد.

ومنها: أنه .. أورد فيه أبياتا كثيرة – وأمثالا غزيرة، بنى على الهزل والفكاهة أساسها وأورد على المزاج البارد نبراسها وهذا أمر من الشرع والعقل بعيد لاسيما عند أهل العدل والتوحيد.

ومنها: أنه يذكر أهل السنة والجماعة وهم الفرقة الناجية- بعبارات فاحشة، فتارة يعبر عنهم بالمجبرة ، وتارة ينسبهم على سبيل التعريض إلى الكفر والإلحاد- وهذه وظيفة السفهاء الشطار، لا طريقة العلماء الابرار....."

وهاك نموذجا من التفسير لقوله تعالى:

(الأخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا الْمُتَّقِينَ ، يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ،الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ،ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ) (سورة الزخرف:٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠)

قال: "يومئذ" منصوب تعدو، أى منقطع فى ذلك اليوم كل خلة بين المتخالين فى غير ذات الله، وتنقلب عداوة ومقتا إلا خلقة المتصادقين فى الله، فإنها الخلة الباقية المزادة قوة إذا رأوا ثواب التحارب فى الله تعالى- والتباغض فى الله — وقيل "الا المتقين " الا المجتنبين اخلاء السوء.

وقيل : نزلت فى أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط.

"يا عباد" حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون فى الله يؤمئذ " الذين آمنو" منصوب المحل صفة لعبادى لأنه منادى مضاف. أى الذين صدقوا" بأياتنا وكانوا مسلمين " مخلصين وجوههم لنا جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا.

وقيل : إذا بعث الله الناس فزع لك أحد فينادى مناد ياعبادى فيرجوها الناس كلهم ثم يتبعها الذين آمنوا فييأس الناس منها غير المسلمين.

قرئ يا عباد "تحبرون " تسرون سرورا يظهر حباره، أى أثره فى وجوهكم كقوله تعالى:

"تعرف فى وجوههم نضرة النعيم"

وقال الزجاج: تكرمون اكراما يبالغ فيه، والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل".

رحم الله الزمخشرى ونفع الناس بعمله.

الإمام سفيان الثورى وتفسيره

ولد سنه سبع وتسعين , خرج من الكوفة إلى البصرة سنة خمس وخمسين ومائة وتوفى بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة.

وكان عالم هذه الأمة وعابدها وزاهدها.

وكان لا يعلم أحدا العلم حتى يتعلم الأدب ولو عشرين سنه.

وامتنع مرة من الجلوس للعلم، فقيل له فى ذلك. فقال:

والله لو علمت أنهم يريدون بالعلم وجه الله لأتيتهم فى بيوتهم وعلمتهم. ولكن إنما يريدون به المباهاة. وقولهم حدثنا سفيان.

وكان إذا جلس للعلم وأعجبه منطقه يقطع الكلام ويقوم ويقول : أخذنا ونحن لا نشعر: وهذه منزلة فى الأخلاق ومحاسبة النفس تعز على من رامها وتطول.

برز سفيان فى الحديث حتى وصل إلى أعلى مراتبه فكان: أمير المؤمنين فى الحديث- وكما أن للمؤمنين أميراً فى مسائل الدنيا فان للمحدثين أمراء وكان منهم سفيان.

كان أبوه من ثقات المحدثين ، وكان من غير شك أول من لقن سفيان العلم، فنشأ سفيان — دون اختيار منه- بين كتب الحديث، وتفتحت عيناه على جو من العلم يتسم بعبير النبوة وتسوده جوامع الكلام، واتجه آلياً فى دراسته وجهة أبيه. وفى ذلك يقول هو:

(طلبت العلم فلم تكن لى نية ثم رزقنى الله النية).

أى أنه طلب العلم أولا بحكم العادة البحته، ثم وفقه الله سبحانه لأنه يقصد به وجه الله.

ولكن مما يجدر ملاحظته أن المحدثين إذ ذاك ما كانوا يأخذون على تدريس الحديث أجراً فلقد كانوا يتمثلون قوله تعالى:

(قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ)

(الأنعام: من الآية٩٠)

وفى سبيل طلب العلم قدم له أهله كل معونه وهيئوا له ما يمكن — وهو نذر يسير — من المساعدة. وفى ذلك تقول أمه.

(يا بنى، أطلب العلم وأنا أعولك بمغزلى، وإذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى فى نفسك زيادة فى الخير فان لم تر ذلك فلا تتعبن نفسك).

ويكفينا فى هذه الكلمة أن نأخذ منها:

١- أن الجو الذى كان يعيش فيه سفيان كان جو تقشف.
٢- أن هذا الجو كان يتسم بالتقوى والصلاح.

ونشأ سفيان بين "أب" من ثقات المحدثين، وأم تريد أن تعوله بمغزلها لو طلب العلم، من أجل زيادة النور فى قلبه.

وبدأ سفيان يتعلم اتباعا لأبيه، واستجابة لرغبة أمه.

وما إن دخل دور الشباب حتى بدأ يفكر جدياً فى أمر معيشته، يقول سفيان:

لما همت بطلب الحديث، ورأيت العلم يدرس، قلت: أى رب، إنه لأبد لى من معيشة، فاكفنى هم الرزق، وفرغنى لطلبه، فتشاغلت بالطلب فلم أر إلا خيراً وأعلنها فى صراحة صريحة:

عليك بعمل الأبطال: الكسب من الحلال، والإنفاق على العيال.

ولما سئل عن الحلال ما هو؟ قال:

تجارة برة، أو عطاء من إمام عادل، أو صلة من أخ مؤمن، أو ميراث لم يخالطه شئ.

ويوصى سفيان من عنده قدر من المال أن يصلحه أى يثمره، فيقول: من كان فى يده من هذه التجارة شئ فليصلحه، فإنه زمان من احتاج كان أول ما بذل ديفه".

ومن أجل كل ذلك طلب سفيان المال عن طريق التجارة، وسافر متاجراً.

ومع كل ذلك فما كان سفيان صاحب ثراء عريض، وما كان ليتمنى أن يكون صاحب ثراء عريض لقد وهب نفسه للعلم ووهبها للعلم لوجه الله سبحانه وتعالى، وما كان هدفه من المال إلا حفظ ماء وجهه ومن أجل ذلك لم يكن يستغرق فى التجارة وإنما كان يتاجر بقدر كسب ما يكفيه ثم يكرس باقى وقته للعلم.

كان سفيان الثورى معنياً بالقرآن عناية كبيرة، ولا يتأتى أن يكون الأمر على غير ذلك، فالقرآن فى حياة المسلم هو الأساس الأصيل الذى بدونه لا يكون إسلام، يقول الوليد بن عقبة:

كان سفيان الثورى يديم النظر فى المصحف، فيوم لا ينظر فيه يأخذه فيضعه على صدره.

ويقول عبد الرازق:

كان الثورى جعل على نفسه، لكل ليلة جزءاً من القرآن وجزءاً من الحديث فيقرأ جزءا من القرآن ثم يجلس على الفراش فيقرأ جزءاً من الحديث ثم ينام.

وكان سفيان يقول: سلونى عن التفسير والمناسك فإنى بهما عليم.

ومن أجل عناية الثورى بالقرآن يقول الأوزاعى:

لو قيل لى إختر رجلا يقوم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ لأخترت لهما الثورى.

ومع عناية الثورى بالتفسير فانه لم يفسر القرآن على الطريقة المعروفة الآن وهى تتبع القرآن من أوله سورة سورة. وآية آية، حتى ينتهى إلى آخره، دون أن يترك آيه بدون تفسير.

كان سفيان — إذن — يفسر آية من هنا وآية من هناك.... إنه كان يفسر الآية التى تحتاج إلى نوع من الشرح والإيضاح الذى يحتاجه بعض الناس لقصورهم فى اللغة، أو لقصورهم فى الثقافة.

وإذا فسر الإنسان القرآن كلمة كلمة، وآية آية .... وسورة سورة ، على هذا النسق الحالى، فقد قيد القرآن — فى وهمه وفى وهم من اتبعه —بفكرته بثقافته ، بعقليته ، بهواه إن كان صاحب هوى....

وما من شك فى أن أسلوب القرآن يتحكم فى المفسر، ولكن المفسر مهما حاول أن يستجيب إلى أسلوب القرآن فإنه يجد مجالا للتأويل حتى يصل إلى ما يرى- بحسب مستواه - أنه حق.

ومع ذلك ومع كل ما قاله المفسرون مع قدماء ومن محدثين. ورغم مئات الشروح التى وضعت للقرآن فان القرآن مازال غضا نضراً جديداً، فياضا بالمعانى، سيلا بالإلهامات، ومن أجل هذه النضرة، ومن أجل ترك أبواب الإلهامات يوحيها القرآن كل يوم لقارئه، لم يفسر رسول الله ﷺ القرآن كلمة كلمة، وسورة سورة، وإنما هى كلمة من هنا وآية من هناك، بحسب الظروف والمقتضيات..... وانظر مثلا كتاب التفسير فى صحيح البخارى أو فى صحيح مسلم أو فى غيره من كتب الصحاح فستجد أن تفسير رسول الله ﷺ إنما هو على ما ذكرنا...

ولم يحاول كبار الصحابة تفسر القرآن على الوضع المألوف عندنا الآن، ذلك لأنهم كانوا يرون أن القرآن فى انطلاقه الموحى وفى نظرته

الملهمة باستمرار، وفى تأثيره الروحى والأخلاقى يجب أن لا تحده حدود ، وأن لا تقيده قيود ذهنية بشرية.

ومن أجل بقاء استمرار القرآن فياضاً بالهداية، لا يحجب نبعه الصافى حجاب من مراء أو من جدل، إلتزم سلفنا الصالح الخطة المحكمة: تفسر كلمة من هنا أو آية من هناك، بحسب الظروف والأحوال....

وسار سفيان الثورى على نسقهم ، بل إنه فى الأغلب الأعم من تفسيره التزم أن يعزو كل رأى إلى صاحبه، وأحب من الذين تحدثوا فى التفسير طائفة معينة، وآثر من بين هذه الطائفة " مجاهد".....

ولم يكن للثورى تفسير للقرآن معروف منشور، وكان الذين يتحدثون عن الثورى فيما يتعلق بتفسيره للقرآن إنما يأخذون من ذلك متناثرات فى مختلف الكتب.

ولكن توفيق الله سبحانه وتعالى صاحب الأستاذ " إمتياز على عرشى" مدير مكتبة رضا ببلدة رامبور بالهند، فعثر على تفسير القرآن الكريم للثورى، رواه أبو جعفر محمد عن أبى حذيفة النهدى عن الثورى فصححه ورتبه وعلق عليه...

بيد أن هذا التفسير الذى نشر فى سنة ١٣٨٥هـ- ١٩٦٥ م لم يستوعب آراء الثورى فى التفسير ففى جلية الأولياء وفى تفسير الطبرى وفى غير ذلك من الكتب كثير من آراء الثورى فى التفسير.

ولعلنا فى المستقبل نجد شبابنا الذين يشرعون فى كتابة رسائل الدكتوراه، أو يحبون البحث العلمى الجاد ينقبون عن آراء الثورى فى التفسير، وينشرون قدر المستطاع كل آراء الثورى فى التفسير سواء صدرت عنه شخصيا أو اختارها من بين آراء الصحابة أو التابعين رضوان الله عليهم.

والثورى له جوانب كثيرة خصبة تحتاج إلى دراسة، فهو صاحب مذهب فقهى لا يقل فى عمقه وفى صدقه عن المذاهب المشهورة، وهو مذهب لم يجد من تلاميذ الثورى فمن يقوم على نشره وهو منشور أيضا فى ثنايا كتب الفقه والتفسير والحديث.

ولعلنا نجد من شبابنا من يقوم بمهمة جمع آراء الثورى فى الفقه، فيكون لنا مذهب اتباعى من أصدق المذاهب وأخلصها.

وكان للثورى مسند فى الحديث يحتوى على آلاف من أحاديث رسول الله ﷺ . والثورى ثقة فى الحديث ، ولعلنا نجد أيضا من شبابنا من

يتفرغ- ابتغاء مرضاة الله تعالى- لجمع أحاديث الثورى، واعادة مسنده من جديد.

نموذج من تفيره :

عن مجاهد فى قوله عز وجل:

(وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ)(البقرة: من الآية١٦٦)

قال: تواصلهم فى الدنيا.

وعن أبى جعفر فى قول الله تعالى:

(وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ)(التوبة: من الآية٦٠)

قال الغارمين المستدينين بغير فساد.

وابن السبيل المجتاز من الأرض إلى الأرض.

وعن ابن عباس فى قوله تعالى:

(أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْيا)(مريم: من الآية٧٤)

قال: الأثاث المال، والرئى المنظر.

وعن عكرمة قال: سئل ابن عباس:

أكان الليل قبل أو النهار... ؟ فقرأ:

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا)

(الانبياء: من الآية٣٠)

ثم قال : هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك ليعلموا أن الليل قبل النهار، وعن مجاهد فى قوله:

(سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ)(الفتح: من الآية٢٩)

قال : الخشوع والتواضع...

الإمام أبن قتيبه وتفسيره

هو الإمام العالم الفاضل أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى وقيل الروزى، الإمام النحوى اللغوى المصنف فى فنون التفسير والحديث وغيرها من الفنون... ولد سنه ٢١٣ هـ.

وسكن بغداد، وحدث بها عن ابن راهوبه، وتتلمذ لكثير من المشاهير

كمسلم بن قتيبة والده، والقاضى يحيى بن أكثم وأبى حاتم السجستانى وشبابة بن سوار والجاحظ.

وروى عنه ابنه أحمد وابن درستويه وغيرهما، وأخذ عنه العلم كثير من العلماء كأحمد بن مروان المالكى وقاسم بن إصبع الأندرسى وأبو القاسم عبد الله بن محمد الأزدى وغيرهم.

تولى ابن قتيبة قضاء الدينور مما يدل على غزارة علمه وسعة فضله وتفرغ للبحث والدراسة والجمع والتحصيل ، ثم مارس التأليف فطال فيه باعه، وظهر به فضله ، وكان من كبار المجتهدين، ومن مؤلفاته الهامة ما يلى:

أدب الكاتب.

عيون الأخبار.

تأويل الحديث.

تأويل مشكل القرآن .

غريب القرآن .

المعارف.

الشعر والشعراء.

الإختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية.

ويهمنا من هذه الكتب ما يتصل بالتفسير وعلومه حيث تبدو خدمته للقرآن واضحة، ومنهجه فى تأويل الكتب المتصلة بعلومه سليما غاية السلامة، نافعا كل النفع.

وقد تحدث ابن قتيبة فى كتابه تأويل مشكل القرآن عن القرآن فقال:- الحمد لله الذى نهج لنا سبيل الرشاد –وهدانا بنور الكتاب، ولم يجعل له عوجا، بل نزله قيما ، مفصلا بينا.

(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)(فصلت:٤٢)

وشرفه وكرمه، ورفعه وعظمه ، وسماه روحه ورحمة، وشفاء، وهدى، ونورا.

وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النظم عن جيل المتكلفين وجعله متلوا لا يمل على طول التلاوة، ومسموعا لا تمجه الآذان ، وغضا لا يخلق على كثرة الرد وعجيبا لا تنقضى عجائبه، ومفيدا لا تنقطع فوائده. ونسخ به سالف الكتب، وجمع الكثير من معانيه فى القليل من لفظه، وذلك معنى قول رسول الله ﷺ :

(أوتيت جوامع الكلم)

فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله سبحانه:

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) (الأعراف:١٩٩)

كيف جمع له بهذا الكلام كل خلق عظيم، لأن فى أخذ العفو صلة القاطعين والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين.

وفى الأمر بالعرف تقوى الله، وصلة الأرحام، وصون اللسان عن الكذب وغض الطرف عن الحرمات.

وإنما سمى هذا وما أشبهه عرفا ومعروفا لأن كل نفس تعرفه، وكل قلب يطمئن إليه.

وفى الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم، وتنزيه النفس عن مماراة السفيه، ومنازعة اللجوج.

ويستطرد فى التمثيل لإيجاز القرآن فى اللفظ مع وفرة المعانى التى تدل عليها الألفاظ القليلة.. ومما ذكره فى ذلك قوله تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ* وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ) (يونس:٤٢، ٤٣)

كيف دل على فضل السمع على البصر، حين جعل من الصمم فقدان العقل ولم يجعل مع العمى إلا فقدان النظر.

وكان من المنافحين عن لغة العرب، الكاشفين عن أسرارها، الموضحين لمزاياها وخصائصها وإنه يقول عن العرب وما خصهم الله به من العارضة والبيان واتساع المجال.

وإنما يعرف فضل القرآن من كثرة نظره ،واتساع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها فى الأساليب ، وما خص الله به لغتنا دون جميع اللغات، فإنه ليس فى جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان، واتساع المجال ما أوتيته العرب خصيص من الله لما أرهصه فى الرسول، وأراده

من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب، فجعله علمه. كما جعل علم كل نبى من المرسلين من أشبه الأمور بما فى زمانه المبعوث فيه:

ويطول بنا المقام لو استعرضنا ما ذكره من أمثلة على ذلك، ويكفينا هنا قوله:

ولو أن قائلا قال: هذا قائل أخى بالتنوين ، وقال آخر: هذا قاتل أخى بالإضافة لدل التنوين على أنه لم يقتله ، ودل حذف التنوين على أنه قد قتله.

ويتعرض ابن قتيبه لبعض المعانى المقصودة من الآيات التى عجز عن فهمها كثير من الناس، وظن البعض أنها تعارض العقل.

ومن أجمل ما ذكره فى ذلك ردا على ما قيل عن تكرار الكلام والزيادة، ومما يقوله فى ذلك.

وأما تكرار الأنبياء والقصص، فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوما "أجزاء متفرقة" فى ثلاث وعشرين سنة، بفرض بعد فرض تيسيراً منه على العباد، وتدريجا لهم إلى كمال دينه، ووعظ بعد وعظ ، تنبيها لهم من سنة الغفلة، وشحذا لقلوبهم بمتجدد الموعظة، وناسخ بعد منسوخ ، استعبادا لهم، واختبار لبصائرهم يقول الله عز وجل:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) (الفرقان:٣٢)

الخطاب للنبى ﷺ والمراد والمقصود به بالتثبيت أنه هو والمؤمنون.

وكان رسول الله ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السامة عليهم أى يتعهدهم بها عند الغفلة ودثور القلوب.

ولو أتاهم القرآن نجما واحدا لسبق حدوث الأسباب التى أنزله الله بها. ولثقلت جملة الفرائض على المسلمين ، وعلى من أراد الدخول فى الدين، ولبطل معنى التنبيه، وفسد معنى النسخ، لأن المنسوخ يعمل به مدة ثم يعمل بناسخه بعده.

وكيف يجوز أن ينزل القرآن فى وقت واحد. افعلوا كذا ولا تفعلوا .. ولم يفرض الله على عباده أن يحفظوا القرآن كله، ولا أن يختموه فى التعلم، وإنما أنزله ليعملوا بحكمه، ويؤمنوا بمتشابهه، ويأتمروا بأمره، وينتهوا بزجره، ويحفظوا للصلاة مقدار الطاقة ويقرأوا فيها الميسور.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ وهم مصابيح الأرض ، وقادة الأيام بمنتهى العلم، إنما يقرأ الرجل منهم السورتين والثلاث والأربع ،

والبعض والشطر من القرآن الا نفرا منهم وفقهم الله لجمعه، وسهل عليهم حفظه.

وكانت وفود العرب ترد على رسول الله ﷺ ، فيقرئهم شيئا من القرآن فيكون ذلك كافيا لهم.

وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، وقصة لوط إلى قوم.

فأراد الله بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص فى أطراف الأرض، ويلقيها فى كل سمع ويثبتها فى كل قلب، ويزيد الحاضرين فى الإفهام والتحذير.

وليست القصص كالفروض ، لأن كتب رسول الله ﷺ كانت تنفذ إلى كل قوم بما فرضه الله عليهم من الصلاة. وعددها وأوقاتها والزكاة وسننها ، وصوم شهر رمضان وحج البيت، وهذا مالا تعرف كيفيته من الكتاب.. ولم تكن تنفذ بقصة موسى وعيسى ونوح وغيرهم من الأنبياء، وكان هذا فى صدر الإسلام قبل إكمال الله الدين، فلما نشره الله عز وجل فى كل قطر، وبثه فى آفاق الأرض ، وعلم الأكابر الأصاغر، وجمع القرآن بين الثقلين زال هذا المعنى واجتمعت الأنباء فى كل مصر ، وعند كل قوم...

هذه بعض الملامح لتفكير ابن قتيبة وعلمه فيما يتصل بالقرآن . وكل ما صدر منه فى ذلك ينبئ عن فكر ناضج، وعلم واسع، وحرص على الروح العلمية السليمة، العاملة على كشف الشبهات ، وإزالة الأباطيل ، وبيان وجه الحق فيما تعرض له من شئون.

وكان ابن قتيبة معنيا بالرد على الشبه التى تثار حول النصوص الدينية وخاصة من المعتزلة ونحوهم ملتزما للمنهج العلمى فى ذلك، فاستحق ثناء العلماء عليه.

قال ابن خلكان:

كان فاضلا ثقة سكن بغداد، وحدث بها عن اسحاق بن راهويه وأبى اسحاق إبراهيم بن سفيان بن سليمان وأبى حاتم السجستانى وتلك الطبقة وتصانيفه كلها مفيدة .

وقال الذهبى فى المغنى عنه: صدوق.

وقال الخطيب : ثقة.

وكانت وفاته فجأة سنة ٢٧٦ هـ، إذ أكل هريسة فأصابته حوارة فصاح صيحة شديدة ثم أغمى عليه ، ثم أفاق ، فما زال يتشهد حتى مات- رحمه الله ونفع بعمله.

معانى القرآن
لأبى زكريا الفراء

كان والده زياد الأقطع محبا لآل البيت ، متفانيا فى حبهم.

وكلمة "الأقطع" فى إسم والده هى وسام شرف ألحق باسمه بسبب حبه لآل البيت، فقد قطعت يده فى حربه مع سيد الشهداء الإمام الحسين رضى الله عنه .

وإذا كان هناك من يسمى: أمير المؤمنين فى الحديث — كسفيان الثورى — فإنه كان يحلو لثعلب العالم الكوفى الكبير أن يسمى الفراء: أمير المؤمنين فى النحو وهو لقب استحقه الفراء بجدارة.

وإذا كان قد بلغ القمة فى النحو، فإن ابن خالته هو محمد بن الحسن الفقيه الشيبانى صاحب أبى حنيفة كان قمة فى الفقه.

ومن أظهر أساتذة الفراء: على بن حمزة الكسائى- فى النحو، وسفيان بن عيينة فى الفقه والحديث.

وكان الفراء معنيا بعلم القراءات — وإجاده إجادة كبيرة وقد أخذه عن الكسائى ، ومحمد بن حفص.

وهذه العقلية التى تمحضت — أو كادت — لدراسة علوم اللغة والنحو وما إليهما لا يأتى أن يكون عندها الاستعداد الفطرى لعلم الكلام ولكن طموح الفراء أبى إلا أن يحاول إتقان علم الكلام فاخفق وذلك لأن طبيعته هى طبيعة النحويين، وعن ذلك يقول أديب العربية أو عمرو الجاحظ:

"دخلت بغداد سنة أربع ومائتين حين قدم إليها المأمون — وكان الفراء يحبنى، ويشتهى أن يتعلم شيئا من علم الكلام، فلم يكن له فيه طبع. لقد أخفق فى راسة علم الكلام، ولكنه كان يحب أن يشتهر بالإعتزال والفلسفة، وليس له فيهما قدم.

وأما تظاهره بذلك، فإنما كان تقربا للمأمون. فإنه ما كان أحد يتقرب منه إلا إذا كانت له ميول إعتزالية ، ومرن لسانه على استعمال مصطلحات فلسفية.

ومع إخفاقه فى علم الكلام، فإنه برع فى علوم كثيرة، يقول ثمامة ابن اشرس- وهو من أئمة المعتزلة، وكان مقربا من المأمون — يقول عن الفراء:

رأيت له أبهة أدب فجلست إليه، فناقشته عن اللغة ، فوجدته بحرا وعن النحو، فشاهدته نسيجا وحده، وعن الفقه: فوجدته فقيها عارفا باختلاف القوم ، وفى النجوم: ماهرا، وبالطب: خبيرا، وبايام العرب واشعارها: حاذقا.

واشتهر الفراء وذاع صيته ، فاستدعاه الرشيد، وأنس له ، وجنى الفراء من وراء ذلك ثروة ومنزلة فألف التردد على أبواب الأمراء والملوك فقد اتصل بالمأمون ، ويروى المؤرخون له أن المأمون عهد إليه أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو، وما سمع من العرب، فأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار. ووكل بها جوارى، وخدما للقيام بما يحتاج إليه حتى لا يتعلق قلبه، ولا تتشوق نفسه إلى شئ حتى أنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة، وصير له الوراقين ، والزمه الأمناء والمنفقين ، فكان الوراقون يكتبون حتى صنف كتاب الحدود ، وأمره المأمون بكتبه فى الخزائن.

وأنس المأمون به كما أنس الرشيد، وادناه المأمون إلى درجة أن وكل إليه تعليم أبنائه ومع أنه كان يتردد على أبواب الأمراء والوجهاء والملوك ، فقد كانت له ميزات حسنة نذكر منها:

أنه كان متقشفا بطبيعته ، وكان المال الذى يأتيه فى أثناء العام يجمعه إلى موعد معين يفارق فيه بغداد إلى الكوفة، حيث أهلة وعشيرته فيمكث بالكوفة أربعين يوما بين أهله وعشيرته يتفقد أحوالهم ويتودد إليهم وينفق عليهم ما ادخره أثناء العام، ثم يعود من جديد إلى بغداد.

وصلة الأرحام من أنفس القربات فى دين الإسلام الحنيف ومن الأمور التى تذكر بالخير للفراء هذا الموقف الكريم.

يروى ابن النديم خبرا يحكيه أبو العباس ثعلب أن السبب فى إملاء الفراء "الحدود" هو أن جماعة من أصحاب الكسائى صاروا إليه وسألوه أن يملى عليهم أبيات النحو ففعل، فلما كان المجلس الثالث قال بعضهم لبعض : إن دام هذا على هذا علم النحو الصبيان والوجه أن يقعد عنه:

فغضب وقال: سألونى القعود — يعنى للمحاضرة والأملاء — فلما قعدت تأخروا، والله لأملين النحو ما اجتمع اثنان- فأملى ذلك ست عشرة سنة ! ووثق به المأمون وبعمله ، فاتخذه معلما لأولاده.

ونأتى الآن إلى (كتاب المعانى) ويذكر ثعلب أن السبب فى تأليفه أن عمر بن بكيركان من أصحابه ، وكان منقطعا إلى الحسن بن سهل، فكتب إلى الفراء أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألنى عن الشئ بعد الشئ من القرآن فلا يحضرنى فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لى أصولا ، أو تجعل فى ذلك كتابا أرجع إليه فعلت !

فقال الفراء لأصحابه:

اجتمعوا حتى أملى عليكم كتاب فى القرآن — وجعل لهم يوما حضروا فخرج إليهم ، وكان فى المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس فى الصلاة وكان يكتب عن الفراء الوراقون — وهم تجار الكتب — ومع أن عدد من كان يحضر الدرس لا يكاد يحصى فإن الذى حرص على الكتابة هم : الوراقون ولما انتهى الفراء من الإملاء خزن الوراقون الكتاب ليبيعوه بثمن مرتفع جدا، وشكا الناس إلى الفراء فاحضر الوراقين وأخذ يتحدث معهم فى خفض ثمن النسخ فلم يفلح معهم وذلك لجشعهم.

لقد أعلنوا أنهم ينسخون الخمس ورقات بدرهم، ولم يجد معهم الحديث الإنسانى !

وعند ذلك أعلن الفراء أنه سيملى من جديد ، وبدأ فعلا، وجاء الناس بأقلامهم ومحابرهم ولما رأى الوراقون ذلك أتو إلى الفراء ورضوا أن ينسخوا كل عشر ورقات بدرهم، وتم الاتفاق على ذلك.

وعن هذا التفسير يقول ثعلب:

" لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحدا يزيد عليه".

وقد كان من الطبيعى أن الفراء كان مهما — وفى الدرجة الأولى- بالنحو كعلم له خطره، من بين العلوم، ثم استخدمه فى تفسير القراءات وتعليل وجوهها من العربية ويمكن أن يقال إن اهتمامه ا لزائد بالقراءات هو الذى جعله يهتم اهتماما مماثلا بالنحو ! والقراءات ليست علما للعلم فقط . وإنما هى مرتبطة بالمعنى ارتباط وثيقا ، ومن هنا كان اهتمام كثير من المفسرين بها.

وكما اهتمم بالقراءات وبالنحو ، فإنه اهتم بأسباب النزول واهتم من قبل ذلك ومن بعد بجمال الأسلوب القرآنى، وبالمعنى اهتماما كبيرا، وما كان ذلك إلا من أجل الدقة فى بيان المعنى لتقريره.

نماذج من تفسيره:

ونذكر هنا عددا من النماذج المختصرة:

ففى مجال اهتمامه بتوجيه القراءات وما تدل عليه من معنى يذكر فى تفسير قوله تعالى من سورة النجم.

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الأثم وَالفَوَاحِشَ إلا اللَّمَمَ)(النجم: من الآية٣٢)

يقول: قرأ يحيى بن وثاب"كبير" وفسر عن ابن عباس أن كبير الإثم هو : الشرك فهذا موافق لمن قرأ "كبير الإثم" بالتوحيد — يعنى: الإفراد دون الجمع "كبائر"... ثم يقول الفراء: وقرأ العوام: كبائر الإثم والفواحش —فيجعلون كبائر كأنه شئ عام وهو فى الأصل واحد،وكانى استحب لمن قرأ "كبائر " أن يخفض " الفواحش" ... قال الفراء: وما سمعت أحدا من القراء خفض "الفواحش"....

وعن جمال الأسلوب القرآنى الذى يكشف عنه الفراء نجد تفسيرا لقوله تعالى:

وَالعَادِيَاتِ ضَبْحاً، فَالمُورِيَاتِ قَدْحاً ، فَالمُغِيرَاتِ صُبْحاً، فَأثَرْنَ بِهِ نَقْعاً) (سورة العاديات:١-٤)

قال: يريد به الوادى- ولم يذكر "الوادى " قبل ذلك وهو جائز لأن الغبار لا يثار إلا من موضع، وإن لم يذكر إذا عرف اسم الشئ كنى عنه، وإن لم يجر له ذكر.

قال: الله تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ) (القدر:١)

يعنى القرآن وهو مستأنف سورة، وما استأنفه فى سورة إلا كذكره فى آية قد جرى ذكره فيما قبلها كقوله (حمَ وَالكِتَابِ المُبِينِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ) (الزخرف:٢)

وقال تبارك وتعالى:

(إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) (ص: من الآية٣٢)

يريد : الشمس، ولم يجر لها ذكر.

وفى مجال اهتمام الفراء بالصناعة النحوية نجد له بعض النوادر الجملية، ففى قوله تعالى:

(وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ)(الزمر: من الآية ٨٠)

يقول الفراء : نسى ما كان يدعو إليه: ترك الذى كان يدعوه إذا مسه الضر، يريد الله تبارك وتعالى:

فإن قلت فهلا قال: نسى من كان يدعوه ، قلت: إن "ما " قد تكون فى موضع " من " قال الله تبارك وتعالى:

(قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) (الكافرون : من الآية ١-٣)

يعنى الله تبارك وتعالى.

وقال عز وجل:

(فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ)(النساء: من الآية٣)

فهذا وجه وبه جاء التفسير- ومثيله: "أن تسجد لما خلقت بيدى"

وقد يكون نسى ما كان يدعو إليه يراد به:

نسى دعاءه إلى الله عز وجل من قبل، فإن شئت جعلت الهاء فى قوله "إليه".

وإن شئت جعلتها لله عز وجل، وكل مستقيم....

نفع الله الناس بتفسير الفراء وبعمله الغزيز.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

الإمام سهل بن عبد الله التسترى وتفسيره

من إعلام العلماء، وأئمة التصوف ، الزاهد الورع، والعابد المتقشف، أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى، ولد فى تستر بالأهواز سنة ثلاث ومائتين من الهجرة وعاش فى القرن الثالث الهجرى ، ذلك القرن الذى حفل بالأئمة الكبار فى كل فن من الفنون.

نشأ سهل فوجد أمامه فى جنح الليل خاله محمد بن سوار، قائما يتبتل إلى الله ويضرع إليه ويناجيه ، يصلى فى خشوع: ويدعو فى خضوع ، ويقضى الليل ساهرا فى عبادة خاشعة آسرة، جذبت سهلا إليه ، وربطته به ، وحببته فيه.

ومرت أيام فإذا بالخال يقول:

يا سهل: إلا تذكر الله الذى خلقك؟

قال سهل : يا خال ، كيف أذكره؟

فقال الخال : قل بقلبك عند تقلبك فى ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك :" الله شاهدى، الله معى، الله ناظر إلى".

يقول سهل : فقلت ذلك ثلاث ليال ثم أعلمته به، فقال لى : قل فى كل ليله سبع مرات فقلت ذلك ثم أعلمته ، فقال: قل فى كل ليلة: احدى عشرة مرة ، فقلت ذلك ، فوضع فى قلبى له حلاوة، فلما كان بعد سنة قال لى خالى:

احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فانه ينفعك فى الدنيا والآخرة.

واستمر سهل على ذلك سنين ، ووجد حلاوة للعبادة ، وأحس بهذه الحلاوة تملأ جوانحه وتسرى بين كل ثنايا شعوره ، وتملك عليه جميع أقطار نفسه، ولما تعود الذكر وتمرس به وأصبح له وردا، وأصبح له غذاء، توجه إليه خاله قائلا:

يا سهل : من كان الله معه، وهو ناظر إليه . وشاهده. أيعصيه؟ إياك والمعصية؟

ولكن كيف يتجنب المعصية وهى أمامه فى كل شئ إنها فى الطريق، إنها فى العمل إنها فى كل مجال. إن عليه أن يهئ نفسه ويعدها إعدادا كاملا للخير، ومن أجل ذلك اعتزل ، وتفرغ للعبادة والتهجد والذكر وكان لا يزال صغيرا لم يذهب إلى الكتاب بعد..

وأرسلوه إلى الكتاب، فاشترط ان يكون ذهابه ساعة من نهار حتى لا ينفرط عقد عبادته ، ولا يتشتت ذهنه.

وذهب إلى الكتاب ، وضم إلى العمل العلم، والى الذكر فيوضات الخير النابعة من داخل القلب ، لقد حفظ القرآن ، وتفقه فى أمور الشرع.

لقد حفظ القرآن وهو أبن ست سنين ، وشغله الذكر والاستغراق فى العبادة عن متطلبات الحياة المادية العادية.

لقد تغذى بالذكر فخف احتياجه إلى ما سواه، وكان يكتفى بخبز الشعير ، وكان يأكل أقل القليل منه.

يقول الإمام ابن عربى ، صاحب الفتوحات المكية.

رحل إلى عبادان ، وتوجه إلى شيخ من كبار الشيوخ ، فسأله عن مسألة فأجابه، فأعجب به ، ولزم خدمته، وأقام عنده مدة ينتفع بكلامه ويتأدب بآدابه، ولما حصل ما شاء الله له من علوم الشيخ عاد إلى تستر، واشتهر فى مقام الزهد والتهجد والعبادة.

ثم أخذ فى السياحة إلى شتى الأقطار، ورحل إلى كثير من البلدان وقابل العديد من الأولياء والعلماء.

لقد حصل العلم بسلوكه، وحصل العلم بتلقيه ومدارسته . لقد ضم إلى الشريعة الحقيقة ، واستمرت سياحته سنين ، وعاد إلى تستر... عاد إليها على نور من ربه، وبدأ دعوته إلى الله على هدى وبصيرة، ولم يبدأ الدعوة إلى الله إلا بعد أن أذن الله له.

يقول صاحب كتاب صفة الأولياء ومراتب الأصفياء:

ذكر سهل التسترى، وهو ابن سبع سنين وساح فى طلب العلم وهو ابن تسع سنين وكانت تلقى مشكلات المسائل على العلماء ثم لا يوجد جوابها إلا عنده وهو ابن إحدى عشرة سنة، وحينئذ ظهرت عليه الكرامات.

وبلغ سهل النضوج العلمى والنضوج الروحى بتوفيق الله تعالى بعد جهاد ومجاهدة بعد ذكر وعبادة، بعد صوم وسياحة وحينما إذن الله له فى الدعوة إليه ، أخذ يدعو إلى الله على بصيرة ، ويرسم الطريق إليه على هدى.

ولم تقتصر دعوته إلى الله على التربية وتعليم السلوك، ولم تقتصر دعوته على القول والموعظة الحسنة، لقد ترك مؤلفات قيمة فى مجالات متعددة، وشارك فى أنواع من العلوم — ومن أشهر كتبه..

رقائق المحبين .

مواعظ العارفين

جوابات أهل اليقين.

قصص الأنبياء

هذا فضلا عن تفسيره المشهور.

ولقد امتاز سهل بتعظيمه للسنة، وبتعظيمه للشريعة.

لقد ذهب إلى أبى داود — صاحب السنن زائرا- واستقبله أبو داود فى احترام واعزاز، وقبل سهل فم أبى داود ، لأنه ينطق بالسنة ويبلغها للناس.

وأبان سهل بذلك عن تواضع جم، واحترام عميق للسنة ولمن يخدمون السنة".

ومن كلماته الحكيمة الدالة على كمال الاقتداء:

" ما عبد الله بشئ أفضل من مخالفة الهوى"

" ما أعطى أحد شيئاً أفضل من علم يستزيد افتقارا إلى الله".

وكانت وفاته بالبصرة سنة ثلاث وثمانين ومائتين بعد حياة مباركة رحمه الله ونفع به.

" تفسير سهل بن عبد الله التسترى"

هذا التفسير من التفاسير التى تمثل بحق التفسير الصوفى للقرآن الكريم .

فمؤلفه له القدم الثابتة فى مجال السلوك الصوفى القائم على أساس من الشريعة والاقتداء بالرسول ﷺ.

وقد تكلم على بعض آيات من القرآن مبينا ما ألهمه بشأنها.

وقد جمع أقواله أبو بكر بن أحمد فى كتاب "عرف " بتفسير التسترى، وهو هذا التفسير الذى نعرفه الآن، والذى طبع فى كتاب متوسط الحجم باسم... "تفسير القرآن العظيم ".

والناظر فى هذا التفسير- يلمح عليه دلائل التفسير الصوفى المستقيم. ويرى فيه تحقيق قول المؤلف...

"أصولنا سبعة.. التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق".

لقد سار سهل فى إطار القرآن ، وعرف ما قاله الأئمة أو كثير من الأئمة فى تفسير الآيات ، ولكن القرآن لا يمكن أن يحيط أحد بأقطاره ، ولا يمكن أن تكون المعانى اللغوية الضيقة هى كل ما عبر عنه القرآن ، إنما — إن عبرت — فإنها تعبر عن ظاهر.

ولكن القرآن الكريم ليس هو ما يظهر للناظر منذ الوهلة الأولى.

إن وراء ظاهرة أسرارا لا تتعارض مع هذا الظاهر ، ولكنها توضحه وتجعله نافذا إلى القلوب جاذبا للنفوس. آسرا للأرواح . إنها ما عبر عنه الرسول ﷺ بقوله:

(لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف ، حد ومطلع)

ويرى سهل أن ظاهر الآية التلاوة، وباطنها الفهم، وحدها الحلال والحرام ومطلعها، : اشرق القلب على المراد بها فقها من الله عز وجل ، فالعلم الظاهر علم عام والفهم لباطنه، والمراد به خاص ، قال تعالى:

(فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا)(النساء: من الآية٧٨)

"أى لا يفقهون خطابا . وتفسيره على هذا الأساس يتجه إلى بيان بعض ما تشتمل عليه الآيات من إشارات، وما تدل عليه من الهامات . فيبرز بعض ما يفهمه من دلائل هذه الآيات.

وقد تحدث كثير من العلماء عن هذا النوع من التفسير.

ويرى إمام ابن الصلاح أن ما ورد عن الصوفية المعتبرين من التفسير لم يذكره الصوفى على أنه تفسير للآية ولا ذهب به مذهب الشرح لها، وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن فإنه النظير يذكر بالنظير.

أما ابن عطاء السكندرى الصوفى الشهير فإنه يوضح المفهوم الحقيقى لهذه النوع من التفسير "التفسير الصوفى" فيقول:

إعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعانى الغريبة ليس إحالة لظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه، ما جلبت له الآية ودلت فى عرف اللسان، وثم افهام باطنه تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه ، وقد جاء فى الحديث:

" لكل آيه ظهر وبطن". ثم يرد على من يقول:

إن فى هذا النوع من التفسير إحالة لكلام الله وكلام رسوله وصرفا لهما عن معانيهما وما يقصد بهما، فيقول:

ليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا:

لا معنى للآية إلا هذا وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مرادا بها، موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم.

هذا هو الذى نراه فى هذا النوع من التفسير كتفسير سهل بن عبد الله. إن سهلا لم يقم بتفسير تقليدى، يتبع فيه القرآن ، ويؤلف فيه تفسيراً شاملا يجمع ما استطاع جمعه من المعانى اللغوية والشرعية والأخلاقية والكونية ، وما إلى ذلك من المجالات التى تحدث عنها القرآن .

لقد تحدث عما أحس به من آثار وقوع الآية على قلبه، وما نضح به شعوره المؤمن فى هذا المجال . ولم يقل إن هذا تفسير كما يقول المفسرون ولم يقل إنه التفسير الوحيد الذى لا تقبل الآية سواه.

على أن سهلا- رحمه الله — لم يقتصر فى تفسيره على الجانب الإشارى من القرآن الكريم.

لقد ذكر فى أحيان كثيرة المعنى الظاهر للآية، والذى شاركه فيه أكثر المفسرين قبل أن يذكر المنى الإشارى أو بعض ما يرى أنه المعنى الإشارى؟

ولقد اقتصر فى أحيان أخرى على المعنى الظاهر، ولم يتحدث عن معنى إشارى وفى أحيان أخرى اقتصر على المعنى الإشارى لوضوح المعنى الظاهر أو شهرته متداولا بين الناس.

أنظر إليه عند تفسير قول تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ). يقول

(الروم: من الآية٤١)

"مثل الله الجوارح بالبر، ومثل القلب بالبحر وهم أعم تفعا واكثر خطراً" هذا هو باطن الآية، ألا ترى أنه سمى قلبا لتقلبه وبعد غوره.

وهذا التفسير صغير الحجم، سهل المأخذ ، يحوى الكثير من الإشارات اللطيفة التى لا تخالف ظاهر القرآن ، ومن الممكن أن تكون مما يشير إليه لفظ الآية ، ويحتمله معناها.

وقد جمع فيه كثيراً من حكايات الصالحين وأخبارهم، ووجه الأنظار كثيراً إلى ما يذكر النفوس ويطهر القلوب ويسوق إلى الصلاح

ومن نماذجه الطيبة:

سئل سهل عن قوله تعالى:

(وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ)(آل عمران: من الآية٧٩)

قال محمد بن سوار:

الربانى الذى لا يختار على ربه أحداً سواه وهو اسم مشتق من الربوبية:

وقال سهل: الربانيون هم العالون فى الدرجة من العلم بالعلم كما قال محمد بن الحنفية لما مات عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: لقد مات هذا اليوم ربانى هذه الأمة وإنما نسب إلى الرب لأنه عالم من علمه . كما قال: "من أنبأك هذا "؟ قال: نبأنى العليم الخبير فنسبه إلى النبوة بما علمه الله عز وجل، وكل من أنباك بخبر موافق للكتاب والسنة فهو منبئ.

وقال عمر بن واصل: الربانيون هو المجموعون من العلماء، كما قال على رضى الله عنه :

الناس ثلاثة : عالم ربانى، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق.

قوله سبحانه :

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ)(الفرقان: من الآية٥٨)

سئل ابن سالم عن التوكل والكسب بأيهما تعبد الخلق؟

قال: التوكل حال رسول الله ﷺ والكسب سنته . وإنما سن الكسب. لهم لضعفهم حين أسقطوا عن درجة التوكل الذى هو حاله. فلم يسقطهم عن درجة طلب المعاش بالكسب الذى هو سنته. ولولا ذلك لهلكوا..

قال سهل: من طعن فى الكسب فقد طعن فى السنة. ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان.

الإمام الطبرى وتفسيره

إذا ما جئنا بالحديث عن ابن جرير الطبرى وتفسيره فقد جئنا شيخ المفسرين بلا منازع لقد كان ابن جرير أديبا ذا أسلوب – يندر أن يصل إليه فحول الأدباء ، لا تحس حينما تقرأه بتكلف أو تصنع بل تحس بالبلاغة والفصاحة تناسب إنسياب الماء الرقراق ، أو تهدر هدير الأعصار المجتاح، وفى كلا الأمرين تكون بصدد الأسلوب المتقن الآسر.

وكان ابن جرير فقيها. صاحب مذهب فى الفقه ، يؤسفنا أن لم يعن به أحد.

وهذا المذهب الفقهى يصلح ان يعنى به أحد طلبه الدكتوراه فيكون رسالة نفيسة تفيد العلم وتلقى بأضواء نفاذة فى الفقه الإسلامى.

وكان ابن جرير مؤرخاً من كبار المؤرخين، وله تاريخه المستفيض المشهور، وكان محدثاً من كبار المحدثين ، لقد كان أمة وحده.

ولنسر معه فى تسلسل حياته وفى أقوال العلماء عنه وعن تفسيره، فيكون ذلك تفصيلا لما ذكرناه.

هو الإمام المفسر المؤرخ أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى..

ولد بآمل سنة خمس وعشرين ومائتين ، واتجه منذ بواكير حياته إلى طلب العلم ودراسة علوم الدين ، فحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وكتب الحديث وهو ابن تسع سنين، ورحل فى طلب العلم إلى كثير من مدن الإسلام ملتقياً بعلمائها ، متعرفاً على أخبارها ، متزوداً مما تذخر به من ألوان الثقافة، حتى توفر له من المراجع والمعارف ما مكنه من تأليف الكتب النافعة الجامعة التى خلدت اسمه، ورفعت ذكره، ووضعته فى مكانه البارز بين علماء الإسلام وقد طبع تفسيره وتاريخه وشطر من كتاب اختلاق الفقهاء ومختارات من ذيل المذيل.

وقد استفاض العلماء فى الحديث عن ملامح شخصيته ومعالم حياته فى شتى الجوانب ومختلف الاتجاهات.

وقال الخطيب:

كان ابن جرير أحد الأئمة ، يحكم بقوله ، ويرجع إلى رأيه، لمعرفته وفضله ، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظا لكتاب الله بصيراً بالمعانى فقيها فى أحكام القرآن ، عالماً بالنسين وطرقها. صحيحها وسقيمها ، ونساخها ومنسوخها. عارفا بأقوال

الصحابة والتابعين. ومن بعدهم من المخالفين فى الأحكام. ومسائل الحلال والحرام عارفا بأيام الناس وأخبارهم.

وقال أبو العباس بن سريج:

(محمد بن جرير الطبرى فقيه العالم): أما عن تفسيره فقد ظهر فيه:

١- تحرزه قبل تأليفه.

٢- ونشاطه فى إعداده .

٣- وسروره بإتمامه.

لقد ظهر تحرزه فى قوله استخرت الله تعالى فى عمل كتاب التفسير. وسألته العون على ما نويته ثلاث سنين قبل أن أعمله. فأعاننى...

وذكر المؤرخون أنه حدث نفسه بهذا التفسير وهو صبى واستخار الله فى عمله. وسأله العون على ما نواه ثلاث سنين قبل أن يعمله . فأعانه سبحانه . ثم لما أراد أن يملى تفسيره قال لأصحابه:

(أتنشطون لتفسير القرآن ؟).....

قالوا وكم يكون قدره؟ .....

لقد رحل إلى الرى فسمع بها محمدا بن حميد الرازى وغيره من مشاهير المحدثين.

ثم انتقل عنها إلى البصرة فسمع محمدا بن معلى. ومحمد ابن بشار المعروف ببندار.

ثم رحل إلى الكوفة فسمع من هناء بن السرى. وأبى كرب محمد بن العلاء الهمدانى وانتهى به المسير فى بلاد العراق إلى بغداد فنهل مما تذخر به من علم واستفاد مما تحتوى عليه من ألوان الثقافة الدينية.

وتجاوز بغداد إلى الشام فقرأ القرآن على العباس بن الوليد البيرونى بقراءة الشاميين واستفاد منه...

ثم انتهى به المسير إلى مصر فلقى بها من مشاهير العلماء محمدا ابن عبد الله بن الحكم والمزنى ومحمدا بن اسحاق بن خزيمة وتلاميذ بن وهب.

وعاود رحلة العودة إلى طبرستان ثم انقطع للتدريس ببغداد حتى وافته منيته فى عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلثمائة. دفن فى داره برحبة يعقوب ولم يغير شيبه.

صنف الكثير من الكتب مثل.

كتاب التفسير .

وكتاب التاريخ.

وكتاب اختلاف الفقهاء.

وكتاب تهذيب الآثار.

وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار وهو الذى سماه القفطى شرح الآثار.

وكتاب ذيل المذيل.

فقال: ثلاثون ألف ورقة.

فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه.

فاختصره لهم فى ثلاثة آلاف ورقة...

والناظر فى هذا التفسير يلمح ما بذله ابن جرير من جهد كبير فى إتمامه، لقد اعتنى فيه بجمع الآثار، وتحقيق الأخبار ، ومدلولات اللغة، وأحكام الشرع، وأبدى رأيه مرجحاً وموضحاً وفاتحاً المجال للاجتهاد والاختيار..

وقد قدم لتفسيره بعد الحمد والثناء والصلاة على خاتم الأنبياء فقال: ثم أما بعد : فإن من جسيم ما خص الله به أمة نبينا محمد ﷺ من الفضيلة. وشرفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة، وحباهم به من الكرامة السنية، حفظه ما حفظ عليهم _ جل ذكره وتقدست أسماؤه — من وحيه وتنزيله ، الذى جعله على حقيقة نبوه نبيهم ﷺ دلالة، وعلى ما خصه به من الكرامة علامة واضحة، وحجة بالغة، أبانه به من كل كاذب ومفتر، وفصل به بينهم وبين كل جاحد وملحد وفرق بينهم وبين كل كلفر ومشرك، الذى لو اجتمع جميع من بين أقطارها جنها وإنسها، وصغيرها وكبيرها، على أن يأتوا بسورة من مثله لم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.. فجعله لهم فى دجى الظلم نوراً ساطعاً ، وفى سدف الشبه شهاباً لامعاً وفى مضلة المسالك دليلا هادياً والى سبل النجاة والحق حادياً.

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)(المائدة:١٦)

حرسه بعين منه لا تنام، وحاطه بركن منه لا يضام، لا تهى على الأيام دعائمه ولا تبيد على طول الأزمان معالمه ، ولا يجوز عن قصد

المحجة تابعه، ولا يضل عن سبل الهدى مصاحبه ، من اتبعه فاز وهدى ومن حاد عنه ضل وغوى، فهو موئلهم الذى إليه عند الاختلاف يئلون ومعقلهم الذى إليه فى النوازل يعقلون ، وحصنهم الذى به من وساوس. الشيطان يتحصنون وحكمة ربهم التى إليها يحتكمون، وفصل قضائه بينهم الذى إليه ينتهون ، وعن الرضا به يصدرون وحبله الذى بالتمسك به من الهلكة يعتصمون.

ثم تحدث عن بعض مهمات تتعلق بالقرآن بين يدى تفسيره...

فتحدث عن إتقان معانى اى القرآن ومعانى منطق من نزل بلسانه القرآن من وجه البيان والدلالة على أن ذلك من الله تعالى ذكره هو الحكمة البالغة، مع الإبانة عن فضل المعنى الذى به باين القرآن سائر الكلام.

ثم فصل القول فى البيان عن الأحرف التى اتفقت فيها ألفاظ العرب وألفاظ غيرها من بعض أجناس الأمم..

ثم تكلم عن اللغة التى نزل بها القرآن من لغات العرب.

ثم تحدث عن قول رسول الله ﷺ : أنزل القرآن من سبعة أبواب الجنة وذكر الأخبار الواردة بذلك... ثم فصل القول فى الوجوه التى من قبلها يوصل إلى معرفة تأويل القرآن .

ثم ذكر بعض الأخبار التى رويت بالنهى عن القول فى تأويل القرآن بالرأى.

ثم ذكر الأخبار التى رويت فى الحض على العلم بتفسير القرآن ومن كان يفسره من الصحابه.

ثم ذكر الأخبار التى غلط فى تأويلها منكرو القول فى تأويل القرآن.

ثم ذكر الأخبار عن بعض السلف فيمن كان من قدماء المفسرين محمودا علمه بالتفسير ومن كان منهم مذموما علمه به فمن المحمودين ابن عباس يقول عبد الله بن مسعود:" نعم ترجمان القرآن ابن عباس". من المحمودين أيضا مجاهد يقول الثورى" "إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به " أما الذين لم يكن لهم فى التفسير قدم راسخة فمنهم الكلبى وكنت أمر عليه طرفى النهار ولم أكتب عنه ومنهم ابو صالح باذان. كان الشعبى رضى الله عنه يمر به. فيأخذ بأذنه فيعركها ويقول:

(تفسر القرآن وأنت لا تقرأ القرآن)

ثم ذكر القول فى تأويل أسماء القرآن وسوره وآيه.

وانتقل بعد ذلك إلى التفسير.

وهو فى تفسيره يبدى رأيه ثم يستشهد عليه بالآثار والأخبار مستعينا فى ذلك بقواعد وأقوال السابقين.

فعن تأويل قوله تعالى:

(يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم)(البقرة: ٢١)

قال: فأمر جل ثناؤه الفريقين اللذين أخبر الله عن أحدهما أنه...

(سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)(البقرة: من الآية٦)

لطبعه على قلوبهم وعلى سمعهم.

وعن الآخر أنه يخادع الله والذين آمنوا بما يبدى بلسانه من قبله: آمنا بالله وباليوم الآخر، مع استبطانه خلاف ذلك ، ومرض قلبه، وشكه فى حقيقة ما يبدى من ذلك وغيرهم من سائر خلقه المكلفين.. بالاستكانة والخضوع له بالطاعة. وأفراد الربوبية له والعبادة دون الأوثان والأصنام والآلهة. لأنه جعل ذكره هو خالقهم وخالق من قبلهم من آبائهم وأجدادهم. وخالق أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم فقال لهم جل ذكره: فالذى خلقكم وخلق آباءكم وأجدادكم وسائر الخلق غيركم وهو يقدر على ضركم ونفعكم أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نفع ولا ضر.

وكان ابن عباس فيما روى لنا عنه يقول فى ذلك نظير ما قلنا فيه . غير أنه كان يقول فى معنى" اعبدوا ربكم" . : وحدوا ربكم . وقد دللنا على أن معنى العبادة الخضوع لله بالطاعة والتذلل بالاستكانة.. والذى أراد ابن عباس — ان شاء الله — بقوله فى تأويل قوله (اعبدوا ربكم) وحدوه. أى أفردوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه.

حدثنا محمد بن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن محمد ابن أبى محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الله: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) للفريقين جميعا من الكفار والمنافقين، أى وحدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم..

ثم قال :

وهذه الآية من أدل دليل على فساد قول من زعم أن تكليف مالا يطاق إلا بمعونة الله غير جائز إلا بعد إعطاء الله المكلف المعونة على ما

كلفه . وذلك أن الله أمر من وصفنا بعبادته والتوبة من كفره بعد إخباره عنهم أنهم لا يؤمنون ، وانهم عن ضلالتهم لا يرجعون.

وقوله (لعلكم تتقون) تأويله : لعلكم تتقون بعبادتكم ربكم الذى خلقكم وطاعتكم إياه فيما أمركم به ونهاكم عنه وأفرادكم له العبادة لتتقوا، سخطه وغضبه أن يحل عليكم ، وتكونوا من المتقين الذين رضى عنهم ربهم:

وكان مجاهد يقول فى تأويل قوله: "لعلكم تتقون " تطيعون..

حدثنا ابن وكيع قال: حدثنى أبى عن سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله (لعلكم تتقون) قال: لعلكم تطيعون...

قال أبو جعفر: والذى أظن أن مجاهدا أراده بقوله هذا لعلكم أن تتقوا ربكم بطاعتكم إياه ، وإقلاعكم عن ضلالتكم.....

من هنا استحق كتاب جامع البيان عن تأويل القرآن للطبرى ثناء العلماء. فقال ابن خزيمة:

نظرت فيه من أوله إلى آخره وما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير ولقد ظلمته الحنابلة.

وقال أبو حامد الاسفراينى:

لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفير ابن جرير لم يكن ذلك كثيرا.

وقال القفطى:

لم ير أكبر من تفسير الطبرى ولا أكثر فوائد.

وقال السيوطى:

كتاب الطبرى فى التفسير أجل التفاسير وأعظمها فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض وللإعراب وللاستنباط ، فهو يفوق بذلك تفاسير الأقدمين.

وقال السيوطى:

(جمع فى تفسيره بين الرواية والراى) ولم يشاركه فى ذلك أحد قبله ولا بعده.

وانتهت به الحياة كما قال ابن كامل عشيه الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلثمائة، ودفن فى دار برحبة يعقوب، ولم يغير شيبه، وكان السواد فى رأسه ولحيته كثيرا، وكان أسمر إلى الأدمة أعين ، نحيف الجسم مديد القامة فصيحا، واجتمع عليه من لا يحصيه إلا الله تعالى

وصلى على قبره عدة شهور ليلا ونهارا. ورثاه خلق كثير من أهل الدين والأدب قال ابن دريد:

إن المنية لم تتلف به رجلا ... بل أتلفت علما للدين منصوبا
كان الزمان به تصفو مشاربه ... والآن أصبح بالتكدير مقطوبا
كلا وأيامه الغر التى جعلت ... للعلم نورا وللتقوى محاريبا

" رحم الله ابن جرير الطبرى، ونفع بعلمه"

معانى القرآن للزجاج

بدأ القرآن بالبحث عن العلم، وكانت أول كلمة فى الوحى هى: "إقرأ".

وأخذ المسلمون يندفعون حول العلم اتباعا لتوجيه القرآن الكريم، حتى ولو لم يكن عند البعض منهم الجو المهيأ لدراسة العلم.

وهذا واحد هو نموذج لفئة كبيرة من أمثاله ، لم تكن ظروفهم الأولى مواتية للتفرغ للعلم، ولكنه جاهد وثابر، وبذلك كل ما يستطيع حتى احتل المكانة التى يتمتع بها العلماء من جاه وثراء.

إنه أبو إسحاق الزجاج:

نشأ فى بئة متواضعة فى القرن الثالث، الهجرى سنة إحدى وأربعين ومائتين من الهجرة ، ولكنها ذات خلق كريم فاضل، وهيأته البيئة الأولى إلى أن يعمل فى الزجاج ، ومن هنا كانت نسبته المشهورة "الزجاج" التى يعرف بها بين كبار العلماء والأعلام.

كان يخرط الزجاج، وقبل ذلك كان قد حصل شيئا من العلم، فكان يشتغل أثناء فراغه بالتعليم، ولا حظ فى نفسه ميلا شديدا إلى دراسة النحو فكان يقتصد من قوته، ويشترى من الوراقين بعض ما يمكنه من إرواء رغبته فى كتب النحو ، يسهر فى دراستها ليله، ويقرأ فيها أثناء فراغه نهارا.

ولما رأى نفسه معدة للفهم والتلقى عن العالم الكبير أحمد بن يحى المعروف بثعلب "النحو" على مذهب أهل الكوفة- فأخذ الزجاج ينظم وقته بحيث يحضر درس هذا العالم الشهير.

ثم بعد ذلك انتقل إلى عالم كبير هو أبو العباس المبرد صاحب كتاب الكامل الذى صارت شهرته فى الآفاق — وثقف الزجاج من ثقافته الواسعة حتى أخذ فى الظهور واتسعت شهرته لعلمه الغزيز ولخلقه الكريم ، وأدبه الجم، وعقيدته السليمة.

وقد استدعاه الوزير عبيد الله سليمان بن وهب وتحدث إليه فرأى علما غزيزا ، وأدبا رفيعا ، ونفسا متواضعة فلم يزده علمه إلا تواضعا وأدبا، إنه العلم النافع.

وأخذ الوزير يستدعيه من آن لآخر ، وفى كل مرة يزداد إعجابه حتى إذا ما وثق به تماما وكل إليه تعليم ابنه القاسم- فن الأدب العربى.

ومضت السنوات، وجاء الوقت الذى تولى الوزارة فيه: القاسم بن عبيد الله تلميذ الزجاج الوفى- فأغدق على الزجاج ما جعله ينعم بحياة أكثر ترفا ونعيما.

ولم تصرف هذه الحياة الزجاج عن الاستمرار فى طلب العلم، بل ربما مكنته من الإزدياد فى طلبه، وكان شعاره هو الشعار الإسلامى.

(رب زدني علما)(طه: من الآية١١٤)

وأخذت- لذلك – شهرته تنتشر وتذيع، حتى طلبه الخليفة العباسى المكتفى بالله وانخرط الزجاج فى مجلس المكتفى بالله، ورأى المكتفى منه ما رآه الوزير من علم غزيز وأدب كريم فجعله نديما من ندمائه.

وأقبلت على الزجاج الدنيا من أوسع أبوابها، ولكن ذلك لم يصرف الزجاج عن وجهته ، وإنما كان يجلس مدرسا ، والتف حوله العلماء يسمعون ويستفيدون ، وتتلمذ له كبار العلماء.

وكان من تلاميذه: أبو على الفارسى، صاحب الشهرة الكبيرة فى اللغة والأدب، وتتلمذ عليه الكثيرون الذين كان لهم الأثر البالغ فى النحو واللغة.

ومن أنفس ما ألفه الزجاج هو كتابه فى تفسير القرآن .

لقد كتبه فى فترة بلغ فيها قمة النضج الفكرى من حياته، واستغرق هذا التفسير حوالى ست سنوات وتفسيره هذا يمتاز بأمرين:

أحدهما: أنه تفسير بالمأثور. وذلك أن الزجاج يذكر الآية. ثم يروى فيها ما أثره عن أسلافنا رضوان الله عليهم، ولكنه لا يذكر ما روى فها دون اختيار وانتقاء ، وإنما يختار الأحسن والأوفق الذى يتفق مع ما يراه يتمشى مع الأسلوب العربى السليم ومع الجو الإسلامى العام، فتفسيره بالمأثور لم يكن مجرد جمع عن السابقين ، وإنما كان إيرادا على روية وتدبير وتفكير.

أما الأمر الثانى الذى برع فيه الزجاج فهو: التخريج النحوى للآيات الكريمة التى تحتاج إلى إيضاح نحوى، ومن هنا كان الزجاج يروى رغبته فى استمتاع بأدائها...

والكتاب طبع فى طبعة محققة تحقيقا متقنا، وذلك ما قام به الدكتور عبد الجليل شلبى من علماء الأزهر، وقد أخرج منه جزأين كبيرين، وسيخرج الباقى تباعا إن شاء الله وكان لهذا التفسير أثره الكبير فيمن أتى من المفسرين من بعد:

لقد تأثر به مثلا صاحب كتاب "الكشاف " الذى كان معنيا بالنحو والبلاغة.

وكما ناقش الزجاج من كتبوا قبله من معانى القرآن ، أو كتبوا فى مجازه وبلاغته . فإن تلميذ الزجاج الإمام: أبو على الفارسى قد أخذ نفسه – مع إعجابه بأستاذه – يتتبع كل ما أرى أن أستاذه أخطأ فيه ، سواء كان الخطأ صريحا أو خلاف الأرجح.

ثم أخذ يعرضها مسألة مسألة. ثم يعرض رأيه هو فيها محللا وناقدا لها.

وقد سمى كتابه اسما له مغزاه. لقد سماه : " الإغفال" وكان مؤدبا فى التسمية مراعاة إلى أستاذه، أنه يريد أن يقول:

إن مالا حظه مجرد إغفال من استاذه، وقال فى أوائل هذا الكتاب "الإغفال" هذه الكلمات المهذبة:

هذه مسائل من كتاب أبى اسحق فى اعراب القرآن ذكرناها لما اقتضت عندنا من الايضاح عنها للإغفال الواقع فيها.. ، ونحن ننقل كلامه فى كل مسألة من هذه المسائل بلفظه وعلى جملته عن النسخة التى سمعناها منه فيها ثم نتبعه بما عندنا....."

ومع هذا الأسلوب المهذب قد يتساءل إنسان فيقول:

ما دام أبو على الفارسى سمع التفسير من الزجاج فلم لم يناقشه اثناء الشرح والسماع ؟ والجواب عن ذلك:

قد تكون هيبة الزجاج هى التى منعته من ذلك ولكن الأقرب فى الإجابة أن الفارسى لم يكن إذ ذاك قد وصل فى النضج العلمى إلى الدرجة التى تمكنه من الملاحظات على أستاذه فلما نضج بمرور الزمن رأى من الوفاء عليه لأستاذه أن ينبه على "الإغفال".

وها هى نماذج من تفسيره : لقوله عز وجل:

(يؤتي الحكمة من يشاء)(البقرة: من الآية٢٦٩)

معنى" يؤتى" يعطى، والحكمة فيها قولان: قال بعضهم هى النبوة، ويروى عن ابن مسعود أن الحكمة هى القرآن، وكفى بالقرآن . حكمه، لان الأمة به صارت علماء جيلا بعد جيل ، وهو وصلة إلى كل علم يقرب من الله عز وجل، وذريعة إلى رحمته ، ولذلك قال الله تعالى:

(ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا)(البقرة: من الآية٢٦٩)

ومعنى

(وما يذكر إلا أولوا الألباب)(البقرة: من الآية٢٦٩)

أى ما يفكر فكرا يذكر به ما قص من آيات القرآن إلا أولوا الألباب، أى ذووا العقول.

وقوله عز وجل (الذين يذكرون الله)(آل عمران: من الآية١٩١)

هذا من نعت أولى الألباب، أى فهؤلاء يستدلون على توحيد الله – عز وجل – بخلقه السموات والأرض وأنهم يذكرون الله فى جميع أحوالهم "قياما وقعودا وعلى جنوبهم".

معناه ومضطجعين ، وصلح فى اللغة أن بعطف بعلى على" قياما وقعودا" لأن معناه ينبئ عن حال من أحوال تصرف الإنسان ، تقول:

أنا أسير إلى زيد ما شيا وعلى الخيل. المعنى ما شيا وراكبا فهؤلاء المستدلون على حقيقة توحيد الله يذكرون الله فى سائر هذه الأحوال.

وقد قال بعضهم : (يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم)(آل عمران: من الآية١٩١) . أى يصلون على جميع هذه الأحوال على قدر إمكانهم فى صحتهم وسقمهم.

وحقيقته عندى- والله أعلم – انهم موحدون الله فى كل حال.

تحصيل نظائر القرآن
للحكيم الترمذى

إننا نعجل فنورد فى مطلع الحديث عن الحكيم الترمذى قوله: (ما صنفت حرفا عن تدبير ، ولا لينسب إلى شىء من المؤلفات، ولكن كان إذا اشتد على وقتى اتسلى به..).

لقد تثقف فى اللغة والدين والحكمة كأحسن ما يكون التثقيف، والتزم العبودية لله سبحانه وتعالى أخلص ما تكون العبودية ، لما توفر له العاملان الأساسيان لكل مرب ومصلح : الثقافة وتزكية النفس ، وأخذ يجاهد فى سبيل الله ، داعيا العبيد الآبقين إلى الدخول من جديد فى ساحة الرضوان ، ليتكفل الله بهم ، وليرعاهم ، وليسعدوا فى دنياهم وفى آخرتهم:

وفاضت عنه الحكمة جذابة وضاءة زكية ، فاضت عنه حديثا، وفاضت عنه سلوكا وفاضت عنه كتابة وبحثا وتأليفا فى مختلف الميادين الدينية ، يقول عنه الإمام الشعرانى : وهو من كبار مشايخ خراسان ، وله التصانيف المشهورة وكتب الحديث.

ثم يروى الإمام الشعرانى بعض أقواله : نذكر منها قوله : دعا الله الموحدين للصلوات الخمس رحمة منه عليهم ، وهيأ لهم فيها ألوان الضيافات لينال العبد من كل قول وفعل شيئا من عطاياه سبحانه وتعالى ، فالأفعال كالأطعمة والأقوال كالأشربة ، وهم عرش الوحدانية.

وكان رضى الله عنه يقول :

(صلاح الصبيان فى المكتب ، وصلاح قطاع الطريق فى السجن، وصلاح النساء فى البيوت) .

أما الإمام القشيرى فإنه يقول عنه :

(من كبار الشيوخ ، وله تصانيف فى علوم القوم).

الواقع أنه لم يكن له التصانيف فى علوم القوم (والقوم هنا هم الصوفية) فحسب ، وإنما كانت له كتب كثيرة فى كثير من الفنون المختلفة.

ومنذ زمن بعيد والناس – كبارا وصغارا – متأثرون به نقدا أو إعجابا .

ومن الكتب التى كان يدرسها الإمام أبو الحسن الشاذلى والإمام أبو العباس المرسى كتاب : " ختم الأولياء " .

وكتاب ختم الأولياء للحكيم الترمذى ، كتاب أقام الجو الثقافى وأقعده حين صدوره وكان سببا فى صعوبات كثيرة اعترضت المؤلف بسبب الآراء التى احتوى عليها .

وهو كتاب أثار اهتمام الإمام الأكبر محيى الدين بن عربى اثارة كبرى. فأفرد له كتابا خاصا ثم أفرد له صفحات من كتاب الفتوحات وحاول ان يجيب على ماورد فيه من اسئلة ووضع نفسه بهذا موضع الاختبار وهو من هو فلسفة وحكمة وعلما وتصوفا ، ووضع نفسه بهذا موضع التحدى وكأنه يقول :

هأنذا أجيب على الاسئلة متحديا فيما يتعلق بصحة الإجابة .

لقد كان الشاذلى يلقى دروسا فى شرح هذا الكتاب ولقد بلغ من روعة هذه الدروس ان كان ابو العباس المرسى يحرص كل الحرص على حضورها لما كان لها فى نظره من الأهمية وحينما يكون على سفر فى شأن من شئون الدعوة ، فإنه يلتمس كل وسيلة تمكنه من حضورها .

ولقد كان كتاب ختم الأولياء مفقودا إلى عهد قريب ، ثم عثر الأستاذ عثمان يحيى عليه فطبعه فى بيروت طبعة محققة مع دراسة عن الترمذى .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى – رضى الله عنه – عن أبى العباس المرسى .

(وكان هو والشيخ أبو الحسن كل منهما يعظم الإمام الربانى محمد ابن على الترمذى ، وكان لكلامه عندهما الخطوة التامة .. وكانا يقولان أنه أحد الأوتاد الأربعة) .

ومن كتبه التى أثارت ضجة كبرى أيضا كتاب : (علل العبودية.. أو علل الشريعة).

ومن الناس من يقول : ان الأحكام لا تعلل ، وإن الله سبحانه يذكر الأحكام معللا لها أحيانا ، فنعرف علتها نصا ، ويترك سبحانه فى الأغلب الأعم التعليل ، فنأخذ بالأحكام ولا نتساءل عن التعليل ، والعبودية التزام ، أتى به الوحى : التزامه دون فتور أو تباطؤ ، أو تردد ودون محاولات للتعليل.

فلما أخرج الإمام الحكيم هذا الكتاب ثار عليه هؤلاء ورموه بالإنحراف ، وألقى الحكيم بنفسه فى معركة الفكر السائدة فكتب من الكتب فى ذلك :

١ – الرد على الرافضة ، فأثار الرافضة ضده – (الرافضة هم الشيعة).

٢ – الرد على المعطلة ، والمعطلة هم المعتزلة ، فأثار المعتزلة ضده.

وكتب كتبا كثيرا متعددة ، اثارت جدلا ونقاشا ، ونورد فكريه فى المجتمع الإسلامى ، ومن الكتب التى لها صلة بكتابنا الذى نقدمه الآن كتاب : (الفروق ومنع الترادف) .

وفكرة الكتاب تقوم على أن الترادف غير موجود فى اللغة العربية، فليس هناك لفظتان بمعنى واحد ، وهذا رأى يخالفه فيه كثيرون، وليس هو الرأى العادى ، ولم يبال الترمذى بما يشيع عنه الناس . وإنما كتب فى ذلك مبرهنا ، ممثلا ، فأثار بذلك أيضا جدلا فى الأوساط اللغوية.

والكتاب الذى نقدمه هو تفسير للقرآن فى زاوية خاصة جدا هى زاوية بيان أن القرآن خال من المترادفات ، وأن كل كلمة فيه لها اصلها اللغوى الذى يختلف عن الأصل اللغوى للكلمات التى تشابهها .

وطريقته : إن يأتى بالأصل اللغوى للكلمة ثم يورد ما يمكن أن يكون فى تيارها من كلمات قريبة المعنى منها ، مبينا الفرق ولو كان يسيرا.

ولقد أتى من أجل ذلك بمجموعة من المصطلحات القرآنية، وأخذ فى تفسيرها وبيان أصلها وما تختلف به عما يشابهها من الكلمات وحديثنا النظرى هذا عن الكتاب يوضحه الأمثلة التى نوردها وهاك نموذجا من تفسيره يقول :

١ – المال : وإنما صار الخير فى هذا المكان "المال" لأنه خير الدنيا ونعيمها ، فالاختيار واقع عليه ولذلك سمى (خيرا).

٢ – الإيمان والإسلام : وإنما سمى الخير "الاسلام والايمان "فى مكان آخر : لأنه مختاره للآخره .

٣ – الوفاء والإمامة : إنما صار الخير : الوفاء والإمامة فى مكان آخر ، فذاك لاختيار الله اياه .

٤ – السعة والغنى: وإنما صار الخير " السعة والغنى " فى مكان آخر فذاك مختاره للدنيا.

٥ - السرور : وإنما صار الخير "السرور" فى مكان آخر : لأنه مختاره على الأشياء . أ.هـ ونموذج آخر من تفسيره : يقول : " الهدى" فقد جاءت على ثمانية عشر وجها ، فالحاصل من هذه الكلمة: كلمة واحدة فقط . وذلك ان الهدى : هو الميل . ويقال فى اللغة : رأيت فلانا يتهادى فى مشيته . أى يتمايل . ومنه قوله تعالى :

(إنا هدنا إليك)(لأعراف: من الآية١٥٦)

أى ملنا إليك . ومنه سميت الهدية : هدية : لأنها تميل بالقلب إلى مهديها . وأن القلب امير على الجوارح . فاذا هداه الله لنوره . أى امالة إليه لنوره : اهتدى . أى : استمال . وقد قال فى تنزيله .

(يهدي الله لنوره من يشاء)(النور: من الآية٣٥)

فهذا أصل الكلمة . ثم وجدنا تفسير الهدى :

١ - البيان : فإنما صار الهدى بيانا فى ذلك المكان ، لأن البيان اذا أوضح على القلب بنور العلم : مد ذلك النور القلب إلى ذلك الشىء وأماله إليه .

٢ - الإسلام : وإنما صار الهدى فى المكان الآخر (الإسلام) لأنه اذا مال القلب بذلك النور إلى ذلك الشىء الذى تبين له : انقاد العبد واسلم ومد عنقا إلى قبوله .

٣ - التوحيد : وانما صار الهدى التوحيد فى المكان الآخر . لأنه إذا مال القلب إلى ذلك النور سكن عن التردد . واطمأن إلى ربه فوحد.

٤ - الدين : وانما صار الهدى " الدين " فى مكان آخر . لأنه إذا مال القلب إلى ذلك النور : دان لله . أى : خضع . والدين : هو الخضوع . ومنه قيل للشىء المتضع : "دون ".

٥ - الدعاء : وإنما صار الهدى فى مكان آخر " الدعاء " لأنه إذا دعا إلى الله بقلب مستنير : مالت القلوب إلى ذلك النور . لأن على ذلك الكلام نورا . لأنه خرج من قلب مستنير.

٦ - بصيرة : وإنما صار الهدى "بصيرة" فى مكان آخر . لأنه إذا دعا الداعى بقلب ذى نور: ولج الكلام مع النور فى الاسماع فاستنارت الصدور من المستعمين . فابصرت عيون نفوسهم . وهى

بصائرها . فتلك بصيرة النفس . فإن للفؤاد بصرا . وللنفس بصيرة وكلاهما يبصران فى الصدر . لأن الصدر : ساحة القلب . وساحة النفس . وقد اشتركا فى هذه الساحة . ومنه تصدر الأمور . ولذلك سمى صدرا لأنه مصدر الأمور . والأعمال منه تصعد إلى الاركان : ما دبر القلب . وما دبرت النفس . اتفقا. أو اختلفا فتنازعا . فالاركان لأيهما غلب بجنوده . فإذا كانت النفس ذات بصيرة : بايعت القلب فى الحق والصواب الذى هو كائن من القلب . لأن فى القلب المعرفة : والعقل معها . والحفظ معها . والفهم معها . والعلم معها . فهؤلاء كلهم حزب واحد . فاذا كانت النفس ذات بصيرة : تابعت القلب وجنوده . واذا عميت : فانما تعمى لعلبة الشهوات ... ودخال الهدى . نازعت القلب بجنودها . فغالب ومغلوب . وذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حدثنا بذلك عمر بن أبى عمر العبدى . قال حدثنا محمد بن الوعيى . قال حدثنى يعلى بن الاشدق الطائفى . قال سمعت عمى عبد الله بن جراد يقول :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ليس الأعمى من يعمى بصره ، انما الأعمى من تعمى بصيرته).

ومن قوله تعالى : **(بل الانسان على نفسه بصيرة)** (القيامة:١٤)

فكل آدمى على بصيرة . فما دام لا تغلب على بصيرته الشهوات فهو مستقيم ، فإذا غلبت الشهوات، عليها عميت ، فاذا عميت استمرت لشدتها وتجلب على القلب شدتها حتى يتابعها القلب ، فاذا تابعها عمى القلب. قال الله تبارك اسمه :

(فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب)(الحج: من الآية٤٦)

٧- المعرفة : وإنما صار الهدى المعرفة فى مكان آخر ، لأنه إذا استنار الصدر: انشرح وانفسح ، فعرف القلب ما يأتى وما يذر، فى ذلك الضوء.

٨ - القرآن : وانما صار الهدى "القرآن".

٩ - والرسول : فى مكان آخر . لأن القلب اذا عقل ما فى القرآن مال إلى ما فيه من الأمر والنهى والوعظ .

١٠- الرشد: وانما صار الهدى "الرشد".

١١- والصواب : فى مكان آخر . لأنه إذا مال القلب إلى ذلك النور فقد رشد .

١٢- التقوى : وانما صار الهدى "التقوى " لأنه اذا مال القلب إلى ذلك النور فقلبه صار فى الوقاية، والتقوى هى الوقاية من النار.

١٣- التوفيق : وانما الهدى "التوفيق " لأنه اذا مال القلب إلى ذلك النور وفقه الله للصواب.

١٤- التوبة : وانما صار الهدى "التوبة" لأنه اذا مال القلب إلى ذلك النور تاب . والتوبة هى الرجوع إلى الله .

١٥- الممر : وانما صار الهدى "الممر" لأنه الممر طريق العباد إلى الله . فاذا مال القلب إلى ذلك النور ، فقد أصاب الممر.

فمرجع هذه الأشياء التى حيرت وجوها ذات شعب: إلى كلمة واحدة .. لأن الهدى : هو ميل القلب إلى الله بذلك النور الذى أشرق به الصدر فانشرح وانفسح وهو قوله تعالى : **(أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه)**(الزمر: من الآية٢٢) .

هذه الاصالة الفكرية وهذه السعة فى المعارف . وهذه الجرأة فى اعلان ما يرى أنه الحق هى التى اطلقت على أبى عبد الله الترمذى: الحكيم. وهذا الوصف يميزه عن الامام الترمذى المحدث الكبير . ولكنها هى نفسها التى عرضته لفتنة أثارها اعداؤه وحاسدوه .

إن الله سبحانه وتعالى يقول : **(وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا)** (الأنعام: من الآية١١٢) .

ولم يكن للترمذى عدو واحد ، وانما كان له أعداء من الرافضة ومن المعطلة ومن المحدثين ومن الفقهاء وقد أثر هؤلاء على العامة، فكان له أعداء من العامة أيضا والناس على دين ملوكهم . أما الناس هنا فهم العامة، وأما ملوكهم فهم أصحاب الأقلام والألسنة .

ولكن العجب العجاب أنه أيضا تعرض للاضطهاد من الصوفية أنفسهم .

ولكن الحق الذى نقوله : أنه لم يخل من المسئولية فى ذلك فأنه هاجم دون رفق أو هوادة أو مجاملة كل انحراف .

انظر إليه يقول عن الصوفية:

قل للمفتونين (بعض الصوفية) يقول لكم محمد بن على (هو الحكيم نفسه) حرام على قلوبكم الوصول إلى منار القربة حتى تؤدوا الفراض على ما وصفت . ثم حرام على قلوبكم بعد ذلك درجات الوسائل. حتى تميتوا مشيئاتكم . ثم حرام على قلوبكم بعد ذلك الدرجة العظمى فى ملك الملوك بين يديه حتى تنقطع عن قلوبكم مشيئة الوصول إليه .

وتألب عليه جميع اعدائه فأخذوا يتهمونه (وهو الصوفى العالم الحكيم) بهم لا تخطر له على بال . حتى رموه فى النهاية بالزندقة .

وأخذ الحكيم الترمذى إلى الوالى وتحدث اليه الوالى فوجد عقلا وحكمة . ولكنه من جانب آخر وجد هياجا شديدا ضد الحكيم ، ماذا يصنع؟

أنه أخذ على الحكيم تعهدا أن لا يتحدث فى الحب وكان الحديث فى الحب من التهم التى اتهموه بها ، ولم تسكن الفتنة ، فاخرج الحكيم من ترمذ فسافر إلى بلخ فكرمه أهلها وقدروه واعتزوا به .

وهدأت الفتنة فى ترمذ وعاقب الله تعالى كل من أساء اليه فعاد إلى ترمذ معززا مكرما ومات بها سنة ٣٢٠ هـ على ارجح الاقوال.

شيخ الحنفية ببغداد
الجصاص وتفسيره

أبو بكر أحمد بن على الرازى شيخ الحنفية ببغداد الذى انتهت اليه رياسة المذهب فى زمانه .

عاش الرازى فى عصر ازدهر فيه العلم وكثرت فيه العلماء فى فنون العلم المختلفة وظهر ذلك واضحا فيما انتجته قرائح علماء هذا العصر من تراث كبير مازال المعين الفياض الذى يفيض على المجتمع الانسانى بما يعود عليه بالنفع فى دينه ودنياه .

وقد لقب بالرازى والجصاص نسبة إلى العمل بالجص- ولد الرازى سنة خمس وثلاثمائة للهجرة ، وشب على طلب العلم والسعى فى تحصيله وشد الرحال اليه فى أشهر مواطنه .

حيث دخل بغداد سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ثم انتقل منها إلى الاهواز ليلتقى بمن فيها من علماء العصر .

ويواصل الجصاص الرحلة فيعود إلى بغداد مرة أخرى ومنها يخرج إلى نيسابور مع الحاكم النيسابورى وكان ذلك برأى شيخه الكبير أبو الحسن الكرخى .

وقد عاد الجصاص من نيسابور إلى بغداد سنة أربع وأربعين وثلاثمائة بعد أن مات شيخه الكرخى وقد أفاد الجصاص من الرحلة إلى الذين تلقى وروى عنهم من أمثال أبى الحسن الكرخى-آنف الذكر- وأبى العباس الاحيم النيسابورى وعبد الله بن جعفر بن فارس الاصبهانى ، وعبد الباقى بن قانع القاضى وسليمان بن أحمد الطبرانى وغيرهم الكثير- لقد أفاد الجصاص منهم علما وسلوكا تمثل فى طهره وعفافه وزهده وورعه وصيانته .

مؤلفاتـــه :

ولقد كان من ثمار الرحلة لطلب العلم والجد فى تحصيله تلك الثروة الضخمة التى تركتها لنا قريحة هذا العالم الفذ والتى من أشهرها هذه المصنفات الجليلة :

أحكام القرآن

شرح مختصر شيخه أبى الحسن الكرخى .

شرح مختصر الطحاوى .

شرح الجامع محمد بن الحسن .

شرح الاسماء الحسنى .

كتاب فى أصول الفقه .

جوابات عن مسائل وردت عليه .

أدب القضاء .

وكثيرا ما ترى الجصاص مذكورا فى المصنفات المشهورة فيذكر صاحب الطبقات السنية فى طبقات الحنفية نقلا عن صاحب "الغنية" عن أبى بكر جواهر زادة فى مسألة اذا وقع البيع بغبن فاحش قال:

ذكر الجصاص وهو أبو بكر الرازى فى واقعاته أن للمشترى أن يرد وللبائع أن يسترد .

وذكر أيضا قول الشيخ جلال الدين فى "المغنى فى أصوله الفقه" فى الكلام فى الحديث المشهور قال : قال الجصاص: أنه أحد قسمى المتواتر.

منصب قضاء القضاة:

ولما ذاع صيت الجصاص وظهر للناس علمه وعرفوا قدره وحسن سيرته وتحليه بالزهد والورع خوطب فى تولى منصب قضاء القضاة ولكنه أبى وتعفف عن قبول هذا المنصب الخطير . وقد نقل صاحب الطبقات السنية فى ذلك .

حدث ابو بكر الابهرى قال : خاطبنى المطيع على قصاء القضاة وكان السفير فى ذلك أبو الحسن بن أبى عمرو الشرابى فأبيت عليه وأشرت بأبى بكر أحمد بن على الرازى . فأحضر للخطاب على ذلك ، وسألنى أبو الحسن بن أبى عمرو معونته عليه فخوطب فامتنع ، وخلوت به فقال لى : تشير على بذلك ؟ فقلت : لا أرى لك ذلك .

ثم قمنا إلى بين يدى أبى الحسن بن أبى عمرو ، وأعاد خطابه، وعدت إلى معونته فقال لى : اليس قد شاورتك فأشرت على أن لا أفعل؟.

فوجم أبو الحسن بن أبى عمرو من ذلك ، قال : تشير علينا بإنسان ثم تشير عليه الا يفعل .

قلت : نعم ، إمامى فى ذلك مالك بن أنس ، أشار على أهل المدينة أن يقدموا نافعا القارىء فى مسجد رسول الله ﷺ ، وأشار على نافع أن لا يفعل ، فقيل له فى ذلك .

فقال : أشرت عليكم بنافع ، لأنى لا أعرف منّله ، ,اشرت عليه أن لا يفعل لانه يحصل له اعداء وحساد فكذلك أنا أشرت عليكم به لأنى لا أعرف منّله وأشرت عليه أن لا يفعل لأنه أسلم لدينه .

تلاميذ الجصاص :

وقد كثر تلاميذ الرازى كثرة فائقة وانتفع بعلمه الكثيرون وانتهت الرحلة اليه حيث جمع مآثر من تقدمه فى العلم والورع والزهد والصيانة ، ومن أشهر هؤلاء الذين أخذوا عنه وانتفعوا به :

أبو بكر أحمد بن موسى الخوارزمى . وأبو عبد الله محمد بن يحيى الجرجانى شيخ القدورى. وأبو الفرج أحمد بن محمد بن عمر المعروف بابن المسلمه وأبو جعفر محمد بن أحمد النسفى . وأبو الحسن محمد بن أحمد الزعفرانى ، وأبو الحسن بن محمد بن أحمد بن الطيب الكعارى والد اسماعيل قاضى واسط وغيرهم .

تفسير الجصاص " أحكام القرآن " .

يعتبر هذا السفر الذى تركته قريحة الجصاص من أجمع الكتب التى تناولت أحكام القرآن بصورة مفصلة أفاد منها غيره ممن جاء بعده وكتب فى هذه الاحكام من أمثال الكيا الهرامى وابن عربى والقرطبى صاحب التفسير المشهور "الجامع لاحكام القرآن ".

والكتاب يجمع هذه الاحكام فى أبواب مرتبة تجمع شمل الآيات التى تتناول قضية أو حكما عاما يفصل الكلام عليها تفصيلا مشفوعا بأقوال العلماء وقرائهم واستنكاراتهم ونظرة سريعة فى سورة النساء تريك صدق ما نقول عن هذا التبويب الفريد . ففى مطلع السورة ومابعده تجد هذه الابواب .

باب دفع أموال اليتامى باعيانها ومنعه الوحى من استهلاكها .
باب تزويج الصغار .
باب هبة المرأة المهر لزوجها .
باب دفع المال إلى السفهاء .
باب دفع المال إلى اليتيم.
باب أكل ولى اليتيم من ماله – إلى غير ذلك من الأبواب .

نموذج من أحكام القرآن

فى باب الامتنان بالصدقة يذكر الجصاص جمله من الآيات يجمع شملها هذا الباب هى قوله تعالى:

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أذى)(البقرة: من الآية٢٦٢)

وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ)(البقرة: من الآية٢٦٤)

وقوله تعالى :

(قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً)(البقرة: من الآية٢٦٣) .

وقوله تعالى : (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) (الروم:٣٩) .

ثم يقول الجصاص بعد ذكر هذه الآيات :

"أخبر الله تعالى فى هذه الآيات أن الصدقات اذا لم تكن خالصة لله عارية من منّ وأدى فليست بصدقة لا ابطالها هو احباط ثوابها . فيكون فيها بمنزلة من لم يتصدق . وكذلك سائر ما يكون سبيله وقوعه على وجه القربة إلى الله تعالى :

(وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ) (محمد:٣٣)

وقال تعالى : (وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ)(البينة: من الآية٥)

(فما لم يخلص لله تعالى من القرب فغير مثاب عليه فاعله ونظيره أيضاً قوله تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) (الشورى:٢٠)

ومن أجل ذلك قال اصحابنا : لا يجوز الاستئجار على الحج وفعل الصلاة وتعليم القرآن وسائر الافعال التى شرطها أن تفعل على وجه القربة . لأن أخذ الاجر عليها يخرجها عن أن تكون قربة لدلائل هذه الايات ونظائرها .

وروى عن الحسن فى قوله تعالى :

[لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى] قال : هو المتصدق بمن بها فنهاه الله عن ذلك وقال ليحمد الله اذ هداه للصدقة.

وعن الحسن فى قوله تعالى:

(ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم)(البقرة: من الآية٢٦٥) .

قال يتثبتون اين يضعون اموالهم.

وعن الشعبى قال : تصديقا ويقينا من انفسهم .

وقال قتاده : ثقة من أنفسهم ، والمن فى الصدقة : أن يقول المتصدق قد أحسنت إلى فلان وأغنيته فذلك ينقصها على المتصدق بها عليه والاذى قوله : انت ابدا فقير ، وقد بليت بك واراحى الله منك .

ونظيره من القول الذى فيه تعبير له بالفقر فقال تعالى :

" قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى " يعنى والله أعلم ردا جميلا ومغفرة قيل فيها ستر الحالةعلى السائل .

وقيل العفو عمن ظلمه خير من صدقة يتبعها اذى لانه يستحق المأثم بالمن والاذى ورد السائل بقول جميل فيه السلامة من المعصية

فأخبر الله تعالى أن ترك الصدقة برد جميل خير من صدقة يتبعها اذى وامتنان وهو نظير قوله تعالى :

"(وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا) (الاسراء:٢٨)

الحاكم النيسابورى وتفسيره

فى حوالى ثلاثمائة وعشرين صحيفة من القطع الكبير جدا جمع الحاكم فى كتابه النفيس المستدرك ما صح عنده من التفسير بالمأثور.

والحاكم هو أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد ، وعرف بالحاكم لتوليه القضاء. ولد سنة (٣٢١ هـ) وقد عنى أبوه بتربيته عناية فائقة ، فأخذ فى الدرس من زمن مبكر جدا من حياته ، وواصل الليل بالنهار ، وبلغ فى العلم مبلغا عظيما .

قال ابن قاضى شهبة :

" طلب العلم فى صغره ، وأول سماعه سنة ثلاثين ، ورحل فى طلب الحديث . وسمع على شيوخ يزيدون على ألفى شيخ ، وتفقه على ابن أبى هريرة . وأبى سهل الصعلوكى وغيرهم " .

أخذ عنه الحافظ أبو بكر البيهقى فأكثر عنه ، وبكتبه تفقه وتخرج، ومن بحره استمد . وعلى منواله مشى .

ويذكر صاحب الشذرات : أنه كتب عن نحو ألفى شخص ، وحدث عن الاصم ، وعثمان بن السماك ، وطبقتهما ، وقد درس القراءات وعنى بها عناية فائقة ، ولم يدرسها نظريا فحسب وإنما قرأه بالفعل على جماعة كثيرة من مشاهير أئمة القراءات .

أما تصانيفه فانها كثيرة ، بل هى من الكثرة بحيث يقول المؤرخون عنه : "بلغت تصانيفه ألفا وخمسمائة جزء" ، ويلاحظ أنهم لم يقولوا : ألفا وخمسمائة كتاب ، وانما ألفا وخمسمائة جزء ، ماذا كان حجم الجزء ؟ .

والذى لا شك فيه أنه كان من المكثرين فى التأليف المستفيضين فى الدراسة، ويقول عنه صاحب الشذرات :-

وصنف التصانيف الكثيرة ، ويقول ابن ناصر الدين "له مصنفات كثيرة".

وكان للحاكم تلاميذ ، وفتن به كثيرون ، انظر إلى صاحب الشذرات يقول :

وانتهت إليه رياسة الفن بخراسان لا بل بالدنيا .

أما عبد الغافر فقد أطنب كما يقول ابن شهبة فى مدحه وذكر فضائله وفوائده ومحاسنه إلى أن قال :-

مضى إلى رحمة الله ولم يخلف بعده مثله .

ويقول عنه أحد مؤرخيه :

أحد أركان الاسلام ، وسيد المحدثين وامامهم فى زمنه ، والرجوع اليه فى هذا الشأن وقدمه الراسخة كانت فى فن الحديث وقد وثقه الكثيرون ، ويقول الخطيب البغدادى عنه :-

كان ثقة ،

ويقول ابن عماد : "وهو ثقة حجة" .

وقال عنه ابن ناصر الدين :-

" وهو صدوق من الاثبات " وهكذا يقولون عنه ويعبرون عن ثقتهم فيه ، ولكنهم يعودون فيقولون مثلا: - وكان يميل إلى التشيع ، أو : "وكان فيه تشيع" "ابن عماد " هكذا .

كيف يكون ثقة ويتهم بالتشيع فى آن واحد مع أن المحدثين ينأون عن كل ذى نزعة أو عصبية . إن الإمام الذهبى يقف معتدلا فى وجه المفتونين بالحاكم ويقف موضحا الامر فى رمى الحاكم بالتشيع فيفسر الامر تفسيرا معقولا ، ويضع كل شىء فى موضعه المستقيم ، قال الذهبى:

هو معظم الشيخين بيقين ولذى النورين ، وانما تكلم فى معاوية فاوذى ، قال :- وفى المستدرك جملة وافرة على شرطهما ، وجملة وافرة على شرط أحدهما لكن مجموع ذلك نصف الكتاب وفيه نحو الربع مما صح سنده وفيه بعض الشىء معلل وما بقى وهو الربع مناكير وواهيات لا تصح . وفى ذلك بعض موضوعات قد علمت عليها لما اختصرته .

وهذا الرأى للذهبى يضع كتاب "المستدرك" فى وضعه الصحيح ويبين أن الحاكم لم يكن شيعيا. وإنما كان يحب عليا وكان حبه لعلى كرم الله وجهه ورضى الله عنه قد ملك عليه شعوره فتحدث عن معاوية باحاديث لا ترضى أنصاره فوصف لذلك بالتشيع أو بالميل إلى التشيع، وليس ذلك من التشيع فى شىء فكثير من أهل السنة وكثير من المؤرخين منهم يقولون بما يقول به الحاكم وليسوا من التشيع من شىء ، ولان الحاكم لم يكن شيعيا فانهم وصفوه بأنه حجة ثقة وقد توفى الحاكم فجأة عقب خروجه من الحمام فى صفر سنة ٤٠٥ هجرية ،توفى مستحما طاهرا رحمه الله رحمة واسعة .

والآن نورد بعض النماذج من تفسيره :

يقول الله تعالى :

(إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) (آل عمران:٥)

قال :-

حدثنا يحيى بن العلاء عن عمه شعيب بن خالد عن سماك بن حرب ، وقرا :

(إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) (آل عمران:٥)

فقال حدثنى عبد الله بن عميرة عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال :

" كنا جلوسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البطحاء فمرت سحابة فقال: أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم ، فقال : السحاب ، فقلنا : السحاب ، فقال : والمزن ، فقلنا : والمزن فقال: والعنان ، فقلنا : والعنان ثم قال أتدرون كم بين السماء والأرض فقلنا : الله ورسوله اعلم قال بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء إلى السماء التى تليها مسيرة خمسمائة سنة وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة وفوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله ، كما بين السماء والارض ثم فوق ذلك ثمانية أو عال بين ركبهم وأظلافهم كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والارض ، والله تعالى فوق ذلك ليس يخفى عليه من أعمال بنى آدم شىء .

ونموذج آخر :

يقول الله تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين) (آل عمران:٩٦)

قال : "عن خالد بن عرعرة قال سأل رجل عليا رضى الله تعالى عنه أول بيت وضع للناس للذى بمكة مباركا أهو أول بيت بنى فى الأرض قال: لا . ولكنه أول بيت وضع فيه البركة والهدى ومقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا . وإن شئت انباتك كيف بناه الله عز وجل ، ان الله أوحى إلى ابراهيم أن ابن لى بيتا فى الأرض فضاق به ذرعا فأرسل الله اليه السكينة وهى ريح حجوج لها رأس فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت ثم تطوقت إلى موضع البيت تطوق اليه ، فبنى ابراهيم فكان يبنى هو سائقا كل يوم حتى اذا بلغ مكان الحجر قال لابنه ابغنى حجرا فالتمس ثمة حجر ثم أتاه به فوجد الحجر الاسود قد ركب فقال : له ابنه من أين لك

هذا قال : جاء به من لم يتكل على بنائك جاء به جبريل عليه السلام من السماء فاتمه .

ونموذج ثالث:

يقول الله تعالى: (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) (لأعراف:١٦٣) .

يقول :

حدثنا ابن جريح عن عكرمة قال : دخلت على ابن عباس رضى الله عنهما وهو يقرأ فى المصحف قبل أن يذهب بصره وهو يبكى فقلت ما يبكيك يا ابن عباس جعلنى الله فداك ؟ فقال هل تعرف ايلة قلت وما ايلة قال قرية كان بها ناس من اليهود فحرم الله عليهم الحيتان ، يوم السبت فكانت حيتانهم تأتيهم يوم سبتهم شرعا بيضاء سمانا كامثال المخاض بأفنائهم وابنياتهم ، فاذا كان فى غير يوم السبت لم يجدوها ولم يدركوها الا فى مشقة ومئونة شديدة ، فقال بعضهم لبعض أو قال ذلك منهم لعلنا لو اخذناها يوم السبت وأكلناها فى غير يوم السبت ففعل ذلك أهل بيت منهم فاخذوا فشووا فوجد جيرانهم ريح الشوى فقالوا والله ما نرى إلا اصاب بنى فلان شيء فاخذها آخرون حتى فشا ذلك فيهم وكثر فافترقوا فرقا ثلاثا فرقة أكلت وفرقة نهت وفرقة قالت لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا فقال الفرقة التى نهت إنما نحذركم غضب الله وعقابه أن يصيبكم بخسف أو قذف أو ببعض ما عنده من العذاب والله لا نبيت فى مكان أنتم فيه وخرجوا من السور فغدوا عليه من الغد فضربوا باب السور فلم يجبهم أحد فاتوا بسبب فاسندوه إلى السور ثم رقى منهم راق على السور فقال يا عباد الله قردة والله لها أذناب تعاوى ثلاث مرات ثم نزل من السور ففتح السور فدخل الناس عليهم فعرفت القردة أنسابها من الانس ولم يعرف الأنس أنسابهم من القردة قال : فيأتى القرد إلى نسيبه وقريبه من الأنس فيحتك به ويلصق ويقول الإنسان أنت فلان فيشير برأسه أى نعم ويبكى وتأتى القردة إلى نسيبها وقريبها من الأنس فيقول لها أنت فلانة فتشير برأسها أى نعم وتبكى فيقول لهم الأنس أما إنا حذرناكم غضب الله وعقابه أن يصيبكم بخسف أو مسخ أو ببعض ما عنده من العذاب قال ابن عباس فاسمع الله يقول فأنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ، فلا أدرى ما فعلت الفرقة الثالثة ، قال ابن

عباس فكم قد رأينا من منكر فلم ننه عنه قال عكرمة فقلت ما ترى جعلنى الله فداك انهم قد انكروا وكرهوا حين قالوا :

(لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديد)(لأعراف: من الآية١٦٤)

فأعجبه قولى ذلك وأمر لى ببردين غليظين فكسانيهما.

الامام السلمى وتفسيره

مؤلف هذا التفسير : محمد بن الحسين بن موسى الأزدى أبو عبد الرحمن السلمى جدا، النيسابورى بلدا. كان شيخ الصوفية ، وعالمهم بخراسان . ذكره الحافظ عبد الغافر فى السياق فقال :

شيخ الطريقة فى وقته ، الموفق فى جميع علوم الحقائق ، ومعرفة طريق التصوف ، وصاحب التصانيف المشهورة العجيبة فى علم القوم ، وقد ورث التصوف عن أبيه وجده . وجمع من الكتب ما لم يسبق إلى ترتيبه ، حتى بلغ فهرست تصانيفه المائة أو أكثر .

وكان من المشتغلين بعلم الحديث ، سمع من أبى العباس الأصم. وابن فارس العمرى البلخى ، والحافظ أبى على الحسين بن محمد النيسابورى وغيرهم من كبار المحدثين .

وروى كثيرا من مسموعاته ، وممن روى عنه من الأئمة :

الحاكم أبو عبد الله ، وأبو القاسم القشيرى ، وأبو صالح المؤذن . وكثيرون وقد وثقه فى الحديث علماء اجلاء منهم الخطيب البغدادى والتاج السبكى وغيرهما ، يقول الخطيب :

قدر أبى عبد الرحمن عند أهل بلده جليل . وكان مع ذلك محمودا صاحب حديث ..

ويقول التاج : أبو عبد الرحمن ثقة . ولا عبرة بالكلام فيه ..

وقد كان للسلمى بيت كتب جمع فيه من الكتب ما لم يسبق إلى ترتيبه من ذخائر المحدثين والصوفية . وكان يخلو بهذا البيت ينقطع فيه للقراءة والتأليف .

وكان شيوخ نيسابور يستعيرون منه بعض ما يحتاجون إليه من هذه الذخائر . فيعيرهم اياه .

وقد ابتدأ أبو عبد الرحمن التصنيف سنة نيف وخمسين وثلثمائة. وهذا معناه أن أباه عبد الرحمن ظل يؤلف قريبا من بضعة وخمسين عاما.

وقد اشتهر أبو عبد الرحمن بأنه نقال الصوفية . وراوى كلامهم . وممن له العناية التامة بتوطئة مذهب المتصوفة وتهذيبه على ما بينه الاوائل .

ولقد كان مدققا فى تعبيره عن مذهب الصوفية . واختباره لمن سبقه. بمثل هذا المذهب من الشيخ . فالأمام الكامل . الفقيه الأصولى المفسر الاسفراينى الذى اشتهر بالدفاع القوى عن مذهب أهل السنة والود

على البدع وعلى كل ما يخالف مذهب أهل السنة : يقول فى كتابه "التبصير فى الدين": سادس ما امتاز به أهل السنة هو :

علم "التصوف" والاشارات وما لهم فيها من الدقائق والحقائق. لم يكن قط لاحد من "أهل البدعة " فيه حظ . بل كانوا محرومين مما فيه من الراحة والحلاوة ، والسكينة والطمأنينة . وقد ذكر ابو عبيد الرحمن السلمى من مشايخهم قريبا من ألف . وجمع اشاراتهم وأحاديثهم . ولم يوجد فى جملتهم قط من ينسب إلى بدع "القدرية " و "الروافض" و "الخوارج" .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء . وكلامهم يدور على التسليم والتفويض من النفس . والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسون الفعل والمشيئة . والخلق والتقدير . إلى انفسهم وذلك بمعزل عما عليه اهل الحقائق من التسليم والتوحيد .

ولد على المشهور فى رمضان سنة ثلاثين وثلثمائة. وقيل : سنة خمس وعشرين وثلثمائة .

وكان والده شيخا ، ورعا، زاهدا، دائم المجاهدة ، له القدم فى علوم المعاملات . وحينما توفى قام جده لأمه وكان واسع الثراء على رعايته. فما أن توفى حتى آل إليه من ثروته ما مكنه من التفرغ للكتابة والتأليف . فكانت تصانيفه مقبولة ، حبيبة إلى الناس ، تباع بأغلى الأثمان.

وفى أخريات أيامه ابتنى للصوفية خانقاه صغيرة . كانت مشهورة فى نيسابور وفى ما جاورها أو بعد عنها من أقاليم مملكة الاسلام . حتى أن الخطيب البغدادى حين ذهب إلى نيسابور زار هذه الدويرة التى كان يسكنها الصوفية يؤمئذ .

أما عن تفسيره فإن له طابعا خاصا هو طابع التفاسير الصوفية الخالصة ، إن كل اتجاهه كان منحصرا فى جمع ما يتيسر من آراء الصوفية حول آيات من القرآن الكريم . وهو لذلك ليس تفسيرا مفصلا لكل آية من آيات القرآن الكريم . وليس تحليلا لفظيا أو بيانا لحكم شرعى.

وهو لذلك يمثل فهما خاصا لقوم مخصوصين فيما يتصل بتفسير القرآن الكريم . أو الحديث عن بعض الفهوم المستنبطة منه .

ومثل هذا المنهج فى التأليف قد لا يستسيغه من يقصر الفهم فى القرآن على ظاهر الآيات . ومن هنا كانت الحملة الشديدة العنيفة على هذا الكتاب ، حتى لقد قال الذهبى ليته لم يصنفه .

وإذا ما تأملنا فى سر هذه الحملة فإننا نجد أن أساسها لا يرجع إلى فساد ما نقله فى نفسه ، وإنما إلى ربطة بالآية كفهم لـها أو تعبير عن بعض ما تشير إليه .

قال التاج السبكى : وكتاب حقائق التفسير المشار إليه قد كثر الكلام فيه ، وقيل أنه اقتصر فيه على ذكر تأويلات ومحال للصوفية ينبو عنها ظاهر اللفظ .

ولقد اطلعنا على الكتاب وهو مخطوط لم يطبع بعد ولكن توجد منه نسخ كثيرة ومنها فى مكتبة الأزهر وغيرها فوجدناها لا تخرج عن كلام الصوفية المعتبرين فى فهم الآيات وتنزيلها على إشارات تتعلق بإصلاح السلوك وخلاص العبودية فضلا عما يدور بين الناس من معانيها الظاهرة.

إن ما يقوله الصوفية حول آيات من القرآن الكريم إنما هو الهامات واشراقات بتوفيق الله رائعة . وهم فى هذا الميدان يسمون الهاماتهم : إشارات ، يعنون بذلك أن الآيات القرآنية لها تفسير بحسب اللغة وأسباب النزول وحوادث التاريخ . وهو تفسير يتفاوت دقة وجمالا. ولكنه مع ذلك تفسير لا يستنفد كل ما تعطيه الآيات القرآنية من اشارات. وما يشع عنها من انوار . وما يتصوع عنها من عبير طيب . وينبغى علينا أن نلاحظ أن هذه الاشارات لا تهدف فى قليل ولا فى كثير إلى أن تحل محل التفسير المألوف كما أن هذه الاشارت لا تتعارض مع التفسير المألوف .

أنها اشارات وليست تفسيرا . ومن أجل ذلك فإنه لا تعارض بين الصوفية والمفسرين .

ونستطيع أن نقول : ان نقد الكتاب إنما يتجه لو كان مؤلفه يرى أن ما يقوله هو وحده الذى تفيده الآية . أما إذا اعتقد أن ما ذكره جهد يضاف إلى جهود . وتسليط للضوء على جانب من الجوانب التى تفيدها الآية . فإن النقد حينئذ يصبح غير ذى موضوع .

وإليك نماذج من تفسيره لتتمكن من الحكم عليه على بصيرة :

قال تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم)
(لأنفال: من الآية٢٧)

قال أبو عثمان : من خان الله تعالى فى السر هتك ستره فى العلانية، قال بعضهم : فى هذه الآية خيانة الله تعالى فى الاسرار وحب الرياسة وإظهار خلاف الاضمار . وخيانة الرسول عليه السلام فى أداب

الشريعة . وترك السنن . والتعاون بها . وخيانات الأمانات . فى المعاملات والأخلاق . ومعاشرة المؤمنين فى ترك النصيحة لهم .

وقال تعالى :

(يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور)
(يونس: من الآية٥٧)

قال ابن عطاء : الموعظة للنفوس . والشفاء للقلوب . والهدى للاسرار. والرحمة لمن هذه صفته .

قال جعفر : شفاء لما فى الصدور . أى راجعة لما فى السرائر . قيل : شفاء المعرفة ، والصفا ، وقيل شفاء التوبة ، وقيل : شفاء التسليم والرضا ، ولبعضهم شفاء المشاهدة واللقاء.

متشابه القرآن
للقاضى عبد الجبار بن أحمد الهمدانى

للمعتزلة نزعة معروفة محددة ، إنها النزعة التى تحكم العقل لـــه القياد . وهذا ظاهر فى كل ما يكتبون فى التفسير وفى التوحيد.

ومن أهم الشخصيات التى توضح مذهبهم والتى وجـــدت تآليفـــها رواجا وانتشارا : القاضى عبد الجبار.

وقد كان لنشر كتابه : "المغنى" أثر كبير فى التعريف المســـتفيض باراء المعتزلة وهو كتاب كبير اجتمع على تحقيق اجزائه الكثيرة طائفـــة من كبار المحققين فأخرجوه اخراجا متقنا .

ولقد لقى القاضى عناية الكثيرين ممن يهتمون به . فنشر له كتاب: "الأصول الخمسة" وكتاب : "تنزيه القرآن عن المطاعن".

ولقد ولد القاضى بخراسان . ولا نكاد نعرف عن حياتـــه الأولـــى شيئا . ولكنه من غير ما شك تعلم على الطريقة التقليدية : الفقه والتفسير والتوحيد والعربية ، وغير ذلك مما كان تقليدا فى زمنه .

لقد خرج إلى البصرة . واختلف إلى مجالس العلماء .

ولقد نشأ فى أسرة متواضعة ، فنشأ فى تقشف وشظف من العيـش ولكن نفسه الطموحة تمردت على ظروفه ،فـــأبى الا أن يتـــابع الطريـــق العلمى فى غير فتور أو ملل .

وشاءت المقادير أن يتصل بالصاحب بن عباد . وكان الصـــاحب بن عباد ذا ميول شيعية وبين الشيعة والمعتزلة شبه كبير ، وخاصة بيـــن المعتزلة والشيعية الزيدية الذين تتلمذ أمامهم زيد على واصل بن عطـــاء رأس المعتزلة الأول .

كان تقدير الصاحب للمعتزلة كبيرا إلى درجة أنه ما كـــان يولـــى القضاء إلا من المعتزلة.

كان القاضى عبد الجبار حينئذ صاحب شهرة عريضة . بل إنه بدأ يحتل مكان الرئاسة للمعتزلة فاستدعاه الصاحب إلى "الرى" واصـــدر لـــه امرا بتولى رئاسة القضاء فى (الرى) (وقزين) وغيرهما ثم ولاه إضافـــة إلى ذلك جرجان وطبرستان .

وأئته الدنيا راغمة وكثر ماله وخدمه وحشمه . وما كان ذلك عـــن انحراف فى طريقه فقد كان مثلا كريما للعدالـــة والتحـــرى الدقيـــق فـــى الاحكام.

أما تقدير الصاحب وحبه له فقد فاق كل وصف.

لقد وصل به الأمر أن كان يقول عنه : أفضل أهل الأرض.

ويقول عنه : أعلم أهل الأرض.

وما من شك أنه كان صاحب خلق فاضل . وصاحب علم عزيز.

وبينما القاضى فى اوج الشهرة : إذا بالصـــاحب ينتـــهى أجلـــه. ويذهب للقاء ربه .

وهنا بدأت مشكلة فى غاية العمق تختلف فيها الأنظار فى كل زمن . وقد اختلفت فيها الأنظار اختلافا كبيرا إذا ذاك . ولعل الكثيرين يتفقـــون معنا فى أنها تحتاج حقيقة إلى تأمل .

لقد أحسن الصاحب إلى القاضى كل الإحسان وأحبه وقدره وغمره بالمال والمناصب ثم مات الصاحب ودعى القاضى للصلاة عليه وهنا وقف القاضى بين أمرين كلاهما مر أحدهما مبدؤه –مبدأ القاضى– وهو مبـــدأ الاعتزال . وهذا المبدأ يقتضى التوبة الصادقة لأن مرتكب الكبيرة فاســـق فإذا لم يتب فلا صلاة عليه . هل يصلى عليه ويخالف فـــى ذلـــك مبـــدأه ويصغر فى عين نفسه ويصبح بمخالفته مبدأه مهرجا أو مزيفا.

أما الأمر الثانى : فهو الوفاء الذى يقتضيه الصلاة على الصـــاحب والشكر وعدم التنكر له بعد انتقاله إلى ربه وعدم نكران الجميل.

المبدأ أو الوفاء.

وآثر القاضى : المبدأ.

ورفض الصلاة على الصاحب.

وهنا ثار الناس عليه ثورة عارمة ورموه بنكران الجميل. وبعـــدم الوفاء. ونقم عليه فخر الدولة وقبض عليه . وعزله من منصبه وصـــادر أمواله.

أكان القاضى على حق . أكان مخطئا ذلك ما نتركه للقارىء.

ولقد طال عمر القاضى حتى ليقول ابن الأثير:

" وقد جاوز التسعين"

ومات فى ذى القعدة سنة خمس عشرة واربعمائة.

والكتاب الذى نتحدث عنه هو كتاب :

"متشابه القرآن".

وعنوانه يدل على محتواه ، فهو تفسير للآيات المتشابهة.

والمتشابه يختلف الناس فى معناه ولكنهم مهما اختلفوا فإن القاضى عرض للآراء المختلفة فى المتشابه . والمتشابه - فيما يرى - هو الذى على صفة تشتبه على السامع من حيث خرج ظاهره على أن يدل على المراد به لشىء يرجع إلى اللغة أو التعارف . ويضرب القاضى مثالا لذلك :

يقول تعالى :

(إن الذين يؤذون الله)(الأحزاب: من الآية٥٧)

فإن هذه الكلمة القرآنية وما شاكلها ظاهرها محال على الله تعالى. فالمراد مشتبهه ويحتاج فى معرفته إلى الرجوع إلى غيره من المحكم.

وتفسير القاضى للمتشابه بهذا النحو يجعل دائرة المتشابه واسعة تشمل كل الأراء التى قيلت فى المتشابه .

أما المحكم فهو الذى لا يحتمل إلا المعنى الظاهر فى أصل اللغة أو بالتعارف أو بشواهد العقل ، وذلك نحو قوله تعالى :

(قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد) (الاخلاص: ١-٤).

ونحو قوله تعالى :

(إن الله لا يظلم الناس شيئا)(يونس: من الآية٤٤)

والكتاب مسائل . يعرض المؤلف الآية فى صورة مسألة . ويفسرها بما يتناسب مع الجو الإسلامى وخصوصا مع جو الإعتزال. ومن أمثلة ذلك ما يلى :

مسألة قالوا : ثم ذكر تعالى بعد ذلك ما يدل على إنه خص المؤمن بالهدى دون غيره .

فقال :

(فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه)(البقرة: من الآية٢١٣) .

والجواب عن ذلك : قد تقدم انا قد بينا أن تخصيصه المؤمن بأن هداه لا يدل على أنه لم يهد غيره . وإنما خصه . لأنه الذى انتفع بالهدى دون غيره .

وبينا أنه قد يخص المؤمن بالهدى الذى هو بمعنى الثواب ، أو طريقه المؤدى إليه ، إلا أن المراد فى هذا الموضع : الدلالة ، ولذلك علق الهدى بالحق فيما اختلفوا فيه .

وقوله تعالى من بعد :

(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما *ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا) (النساء ٢٩ :٣٠)

فدل تعالى على أن من يفعل أكل المال بالباطل وقتل النفس يدخله النار لا محالة وقد يوصف بذلك الفاسق من أهل الصلاة ، كالكافر ، فيجب حمل الآية على العموم ، ومعقول من حال الكلام أنه يريد النهى عن أن يأكل بعضنا أموال بعض ، والوعيد وارد عليه على الحد الذى وقع النهى عنه ، فليس لأحد أن يتعلق بذلك فاما قتل النفس فالنهى يتناول فيه أن يقتل بعضنا بعضا أو أن يقتل نفسه وكلاهما سواء فى صحة النهى فيهما ، فإن حمل على الامرين ورد الوعيد عليهما جميعا.

وإنما قال : العلماء إن المراد به : ولا يقتل بعضكم بعضا ، من حيث ثبت أن الإنسان ملجأ إلى أن يقتل نفسه . فلا يصح وحاله هذه أن ينهى عن القتل ، فيجب إذا صرف النهى إلى الوجه الثانى ، والوعيد إنما ورد على هذا الحد .

مسألة : قالوا : ثم ذكر بعده ما يدل على أنه هو الخالق لانصراف المؤمن عن اتباع الشيطان ، فقال :

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا)(النساء: من الآية٨٣)

والجواب عن ذلك : ان ظاهره يقتضى انه لولا فضله لاقدمنا على المعصية ، وليس فيه بيان ذلك الفضل ، والمراد به الالطاف والتأييد وسائر ما يصرف المرء عن اتباع الشيطان والمعاصى ، وبين تعالى أن ذلك الفضل لو لم يفعله لكان فيهم من لا يتبع الشيطان مبينا بذلك أن المعلوم من حال كثير منهم أنه يؤمن وينصرف عن اتباع الشيطان وإن لم يلطف له ، وهذا يصدق قولنا فى اللطف أنه قد يختص بمكلف دون مكلف.

وإن حملت الكلام على أنه لولا فضله على الكل لاتبعوا الشيطان إلا قليلا منهم فإنهم مع فضله عليهم يتبعونه ، فإنه يدل على مثل ما قدمناه فى أن اللطف قد يختص . وقد يختص . وقد يفعل بمكلفين فيكون لطفا لاحدهما دون الآخر . كما أن رفق الوالد بأحد ولديه قد يكون لطفا له فى التعليم . ولا يكون لطفا فى الآخر .

وبعد : فإن هذا الكتاب فى غاية النفاسة إذا نظرنا إلـــى مذهـب المعتزلة أما إذا نظرنا إلى مذهب أهل السنة ، فإن فيه الكثير من التفانى . ولكن فيه أيضا ، الكثير مما يمكن المناقشة فيه والجدل . وهو على كـــل حال كتاب للخاصة .

الإمام القشيرى وتفسيره لطائف الإشارات

يمثل الإمام القشيرى اتجاها خاصا فى العلـــوم الإسـلامية. إنـه الاتجاه الصوفى فى أدق مظاهره وأنقى صوره : اتباع للســـنة .وكشـف لدقائق الطريق . ورد لما نسب إلى التصوف من مظاهر . وما التصق بـه من رسوم .

والإمام القشيرى هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بـــن عبـد الملك زين الاسلام القشيرى نسبة إلى قبيلة بنى قشير العربية الأصيلة .

ولد فى قرية من نواحى نيسابور ومـات أبـوه وهـو صغـير . فاتجهت اسرته نحو العلم ، فسمع من كبار الشيوخ . وتلقى عن كثير مـن العلماء ومن أهم هؤلاء الذين أثروا فى تكوين شخصيته العلميـة وحياتـه الفكرية ابن فروك وأبو إسحاق الاسفراينى وغيرهم .

ثم ارادت المقادير أن يحضر درس : الأستاذ أبو على الدقـاق ، ليرى اخلاصا. ويرى تقوى . ويرى نورا يرتسم على وجهه . ويشرق من كلماته فينير قلوب السامعين . ويجذبهم إلى الله . وكانت فطرة القشـيرة النقية على استعداد تام لسلوك الطريق . ورأى الإمام أبو على الدقاق فيـه النجابة . فقبله فى زمرة مريديه . ثم اصطفاه فى زمرة أخصائه . وزوجه أبنته مع كثرة أقاربها .

وتأثر القشيرى بالشيخ الدقاق ، وكان ذا شخصية قوية فيما يتصـل بالتصوف والصوفية . دقيق البحث عميق الفكرة ، رائد السلوك ، يقـول المناوى عنه :

كان لسان وقته ، وإمام عصره ، فارها فى العلم ، محمود السيرة، مجهود السريرة، جنيدى الطريقة سرى الحقيقة ، أخذ مذهب الشافعى عـن القفال والحصرى وغيرهما . وبرع فى الأصول وفى الفقه وفى العربيـة حتى شدت إليه الرحال فى ذلك ، ثم أخذ فـى العمـل ، وسـلك طريـق التصوف، وأخذ عن النصر اباذى .. قال ابن شهبة : (وزاد عليـه حـالا ومقالا، وعنه أخذ القشيرى صاحب الرســالة ، ولـه كرامـات ظـاهرة ومكاشفات باهرة..

وكما استفاد القشيرى من أساتذته تأثر بمن عاصره من العلماء ، كما أثر فيهم ، ومن أشهر هؤلاء : (السلمى وأبى المعالى الجويف امام الحرمين).

وقد ألف الامام القشيرى عددا من المؤلفات الهامة تدور فى مجملها حول التصوف . سواء أكان تحديدا لماهيته . أم فهما للقرآن على ضوئه. أو مناقشة للأمور التى تلازمه كالذكر ونحوه ... ومن أهم هذه المؤلفات :

١- الرسالة القشيرية ، كتبها المؤلف فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام .

كتبها تصحيحها لأوضاع كثيرة انحرفت ، وبيانا لما ينبغى أن يكون عليه المريد الصادق .

لقد كانت هناك جوانب كثيرة فى الاجواء التى تزعم أنها صوفية قد دب إليها الفساد . وسلك بعض المدعين مسالك لا تمت إلى الدين ولا إلى التصوف بصلة . كما هو الشأن دائما فى المدعين المزيفين الذين يوجدون فى كل عصر وفى كل ميادين . فأشفق الامام القشيرى على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر -أى أمر التصوف- على هذه الجملة قد بنى قواعده . وعلى هذا النحو سار سلفه ..

وقاده هذا الاشفاق إلى أن يكتب هذه الرسالة مبينا فيها جانبين:

الجانب الأول : سيرة رجال التصوف وبعض أقوالهم ، وذكر فى هذا الجانب كثيرا من أعلام الصوفية كنماذج يسير المريد على هديهم ..

أما الجانب الثانى : فإنه مبادىء السلوك ومناهجه ..

٢- تفسيره المشهور : لطائف الاشارات "وسنتحدث عنه بالتفصيل"

٣- التيسير فى التفسير ، مخطوط فى الهند ولندن .

٤- حياة الأرواح والدليل على طريق الصلاح والفلاح ،مخطوط بالاسكوربال.

٥- المعراج وقد حققه الدكتور على حسن عبد القادر.

٦- شكاية أهل السنة ، ذكرها السبكى فى طبقات الشافعية كاملة.

٧- الفصول ، وهو مخطوط بالقاهرة.

٨- التوحيد النبوى ، مخطوط بالقاهرة.

٩- اللمع ، مخطوط بالقاهرة.

١٠- شرح أسماء الله الحسنى ، وقد طبعه مجمع البحوث الإسلامية.

وهذه المؤلفات انما تدل على تمكن صاحبها من علوم الشريعة والحقيقة، ورعايته فى الحديث لما يقتضيه كل من العلمين ، فلم يكن فى حديثه عن التصوف إلا معبرا عن الشريعة . ولم يكن فى حديثه عن الشريعة إلا موضحا لها ببعض المفاهيم الصوفية.

وانتهى الأمر بالقشيرى إلى أن أصبح كما يقول عنه الأمام عبد الغافر: الإمام مطلقا، الفقيه ، المتكلم ، الاصولى ، المفسر ، الاديب ، النحوى ، الكاتب ، الشاعر لسان عصره ، وسيد وقته ، وسر الله بين خلقه ، مدار الحقيقة ، وعين السعادة ، وقطب السيادة ، من جمع بين الشريعة والحقيقة ، كان يعرف الأصول على مذهب الاشعرى ، والفروع على مذهب الشافعى .

ولقد ترجم له صاحب كتاب " دمية القصر" أبو الحسن الباخرزى فقال :

جامع لأنواع المحاسن ، تنقاد له صعابها دلل المراسين ، فلو قرع الصخر بصوت تخديره لذاب ، ولو ربط ابليس فى مجلس تذكيره لتاب ، وله فصل الخطاب فى فصل المنطلق المستطاب ، ماهر فى التكلم على مذهب الأشعرى ، خارج فى احاطته بالعلوم عن الحد البشرى ، كلماته للمستفيدين فوائد وفوائد .

واعتاب منبره للعارفين وسائد ، ثم إذا عقد بين مشايخ الصوفية حبوته ، ورأوا قرته من الحق وحظوته : تضاء لوا بين يديه ، وتلاشوا بالإضافة إليه وطواهم ببساطه فى حواشيه، وانقسموا بين النظر والتفكير فيه، وله شعر يتوج به رءوس معاليه ، إذا ختمت به أذناب أماليه".

وتوفى يوم الاحد فى السادس عشر من شهر ربيع الأول عام ٤٦٥ هـ خمس وستين وأربعمائة بمدينة (نيسابور) ودفن بجوار شيخه أبى على الدقاق رحمهما الله رحمة واسعة .

قدم الامام القشيرى لتفسيره بمقدمة تشير إلى منهجه . وتبين طريقته فى تأليفه فقال:

الحمد لله الذى شرح قلوب أوليائه بعرفانه . وأوضح نهج الحق بلائح برهان لمن أراد طريقه . وأتاح البصيرة لمن ابتغى تحقيقه . وأنزل

الفرقان هدى وتبيانا على صفيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله معجزة وبيانا. وأودع صدور العلماء معرفته وتأويله . وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله . ورزقهم الإيمان بمحكمة ومتشابهه وناسخه . ووعده ووعيده . وأكرم الاصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف اسراره وأنواره . لاستبشار ما ضمنه من دقيق اشاراته . وخفى رموزه بما لوح لاسرارهم من مكنونات . فوقفوا بما خصوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم . ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم والحق سبحانه وتعالى يلهمهم بما به يكرمهم فهم به عنه ناطقون وعن لطائفه مخبرون وإليه يشيرون . وعنه يفصحون والحكم إليه فى جميع ما يأتون به ويذرون .

وقال الأمام أبو القاسم القشيرى رحمه الله :

وكتابنا هذا يأتى على ذكر طرف من اشارات القرآن على لسان أهل المعرفة ، أما من معانى مقولهم . أو قضايا أصولهم سلكنا فيه طريق الاقلال خشية الملال. مستجدين من الله تعالى عوائد المنة . متبرئين من الحول والمنة. مستعصمين من الخطأ والخلل . مستوفقين لاصوب القول والعمل ملتمسين أن يصلى على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ليختم لنا بالحسنى بمننه وافضاله . وتيسر الاخذ فى ابتداء هذا الكتاب فى شهور سنة أربع وثلاثين وأربعمائة . وعلى الله اتمامه إن شاء الله تعالى عز وجل .

لقد بين فى هذه المقدمة أن كتابه إنما هو ذكر لطرف من اشارات القرآن على لسان أهل المعرفة . وهذه الاشارات دقيقة محكمة مختصرة . وهى وإن كانت تعبر عن الحقيقة فإنها لا تخالف الشريعة . فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول. وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول.

إن هذا التفسير يمثل مرحلة أخرى فوق مرحلة التفسير العادى الذى يعتمد على قواعد اللغة وألوان العلوم التى يحتاج إليها المفسر.. إنه كشف لذوق . وإبراز الاحساس تحصل من المجاهدة . وساعد عليه فضل الله تعالى الذى فجر ينابيع الفهوم .

ومن هناك يعد مكملاً لغيره من ألوان التفاسير لا تباينا لها . ويتعاون الجميع كل فى مجاله على فهم آيات القرآن الكريم .

ومن نماذج هذا التفسير :

قوله جل ذكره :

(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) (آل عمران:١٤٦) .

وإن الذين درجوا على الوفاء ، وقاموا بحق الصفاء ، ولم يرجعوا عن الطريق وطالبوا نفوسهم بالتحقيق . وأخذوا عليها بالتضييق والتدقيق. وجدوا محبة الحق سبحانه ميراث صبرهم . وكان الخلف عنهم الحق عند نهاية أمرهم . فما زاغوا عن شرط الجهد ، ولا زاغوا فى حفظ العهد . وسلموا تسليما وخرجوا عن الدنيا وكان كل منهم للعهد مقيما مستديما . وعلى شرط الخدمة والوداد مستقيما.."

قوله جل ذكره : (يا أيها الأنسان ما غرك بربك الكريم) (الانفطار:٦) أى ما خدعك وما سول لك حتى عملت بمعاصيه؟ ويقال: سأله وكأنما فى نفس السؤال لقنه الجواب ، يقول : غرنى كرمك بى ولولا كرمك لما فعلت ، لأنك رأيت فسترت ، وقدرت فأمهلت .. لا استحلالا له ولكن طول حلمه عنه حمله على سوء خصاله وكما قلت :

يقول مولاى :أما تستحى ... مما أرى من سوء أفعالك
قلت : يامولاى رفقا فقد ... جرأنى كثرة أفضالك

قوله جل ذكره : الذى خلقك فسوال فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك أى ركب أعضاءك على الوجوه الحكمية فى أى صورة ما شاء. من الحسن والقبح والطول والقصر . ويصح أن تكون الصورة هنا بمعنى الصفة وفى بمعنى على فيكون معناه : على أى صفة شاء ركبك: من السعادة أو الشقاوة . والايمان أو المعصية ".

هذا وقد قام الدكتور إبراهيم بسيونى بجهد مشكور فى تحقيق هذا التفسير واخراجه على صورة طيبة حازت إعجاب الجميع ، فشكر الله له جهده ، ونفع بهذا التفسير .

شيخ الشافعية ببغداد
الكيا الهراس وتفسيره

الإمام شمس الإسلام عماد الدين أبو الحسن على بن محمد الطبرى المعروف بالكيا الهراس الملقب : عماد الدين .

" والكيا" بهمزة مكسورة ولام ساكنة . ثم كاف مكسورة بعدها يـاء مثناه من تحت معناه الكبير بلغة الفرس .

"هراس" براء مشددة وسين مهملة – قال ابن العماد فى الشـذرات: (لا نعلم تبعيته لأى شيء) ولد الهراس خامس ذى القعدة سنة خمسـين وأربعمائة للهجرة ونشأ طالبا للعلم جادا فى تحصيله ورحل فى سبيله إلـى نيسابور فى الثامنة عشرة من عمره قاصدا ساحة العالم الجليـل والإمـام المشهور امام الحرمين الذى كان حسن الوجه مليح الكلام فحصل طريقتـه وتخرج وصار من أئمة اصحابه . وبرز فى الفقه والأصول وغيرهما من العلوم . وأصبح من رؤوس المعيدين فى الدرس– وكان هـو وأقرانـه الغزالى والخوافى ، أبرز تلاميذ امام الحرمين وأنبغ من تخرج به .

ومما يدل على جده فى تحصيل العلم وحفظه ما قاله عن نفسـه: وكانت فى مدرسة "سرهنك" قناة لها سبعون درجـة وكنـت إذا حفظـت الدرس انزل القناة وأعيد الدرس كل درجة فى الصعود والنزول . وكـذا كنت أفعل فى كل درس حفظته ..".

وقد واصل الهراس الرحلة إلى بيهق ودرس بها زمنا ثم تحول بعد ذلك إلى مدينة العلم وحاضرة العصر وموطن العلم والعلماء مدينة بغداد .

وقد انتهى به الأمر فى هذه المدينة إلى أن تبوأ بها منزلة رفيعة فى العلـم وشأنا عظيما بين العلماء حيث تولى التدريس بالمدرسة النظامية بها فـى ذى الحجة سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة واستمر مدرسا بها إلى أن توفـى فى أول شهر المحرم سنة أربع وخمسمائة للهجرة .

مكانته وثناء العلماء عليه :

لقد بلغ الهراس منزلة سامية ومحلا مرموقا فى العلم وبين العلماء وقد استفاض العلماء فى بيان مكانته والتعريف بمنزلته فقال عبد الغفار بن اسماعيل الفارس عنه :

"الامام البالغ فى النظر مبلغ الفحول".

وقال السبكى عنه :

أحد فحول العلماء ورؤس الائمة فقها وأصـولا وجـدلا وحفظـا لمتون احاديث الاحكام .

وقال الاسنوى :

كان اماما نظاراً ، قوى البحث ، دقيق الفكـر ، ذكيـا فصيحـا، جهورى الصوت حسن الوجه جداً وكان فى مناظرته قـوى الحجـة بيـن الدلالة واضح الرأى له لطافة وعذوبة .

يقول السبكى :

وكانت فيه لطافة عند مناظرته ، ربما ناظر بعض علماء العـراق فأنشد :

ارفق بعيدك ان فيه بيوسه جبلية ولك العراق وماؤه

قيل : انشد هذا البيت فى مناظرته مع أبى الوفاء بن عقيل الحنبلـى

□ وكان أبو الوفاء مشهوراً بتمسكه بالاصول وشدته فى الرأى . وقد نقـل عنه الجوزى فى كثير من كتبه عن كتبه محتجا بارائه ولاسيما فى كتـاب "تلبيس ابليس " .

ومما يدل على هذه المكانة السامية ومنزلته بين علماء عصره ، ما حكاه الاسنوى قائلا:.

" وكان ممن حضر جنازته الشريف أبو طالب الزيونى ، وقاضى القضاة أبو الحسن بن الدامغانى مقدما أصحاب الحنفيـة . وكـانت بينـه وبينهما منافسة فوقف أحدهما عند راس قبره والآخر عند رجليه . وأنشـد ابن الدامغانى :

وما تغنى النوادب والبواكـى وقد أصبحت مثل حديث أمس

وأنشد الشريف :

عقم النساء فلم يلدن شبيهـه ان النساء بمثله عقـم

وقد رثاه خادمه أبو اسحاق إبراهيم بن عثمـان العـزى الشـاعر المشهور حيث قال :

بكى على شمسه الاسلام اذا قلـت بأدمع قـل فـى تشـبيهها المطـر
حبر عهدناه طلق الوجـه مبتسـما والبشر احسن ما يلقى بـه البشـر
احيا ابن ادريس درسا كنت تـورده تحار فـى نظمـه الآذان والفكـر
من فاز منه بتعليـق فقـد علقـت يمينـه بشـهاب ليـس ينكـدر

رحم الله الهراس الذى كان محباً لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والسنة قولا وعملاً حتى قال عنه ابن خلكان : كان محدثا يستعمل الأحاديث فى مناظراته ومجالساته ونقل عند قوله :

" إذا جالت الأحاديث فى ميادين الكفاح طارت رؤس المقاييس فى مهاب الرياح " .

فتأويه :

وللهراس كثير من الفتاوى المنثورة فى امهات المراجع ونقلها عنه تلاميذه المشهورون . ومنها ما نقله عنه الحافظ أبى طاهر السلفى إذ قال :

"أستفتيت شيخنا الكيا الهراس : ما يقوله الإمام -وفقه الله تعالى- فى رجل أوصى بثلث ماله للعلماء والفقهاء . اتدخل كتبه الحديث هذه الوصية أم لا ؟ .

فكتب الشيخ تحت السؤال : نعم . كيف لا وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم" من حفظ على أمتى أربعين حديثا من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة فقيها عالماً".

مؤلفاته :

كثرت مؤلفات الهراس فى فنون مختلفة شملت القرآن والحديث وعلوم الشريعة الغراء . ومن أشهر هذه المؤلفات :

أحكام القرآن -وسنتناوله بالحديث بعد ذلك (لوامع الدلائل فى زوايا المسائل) و (شفاء المسترشدين فى مباحث المجتهدين).

و (نقد مفردات الإمام أحمد) .

و (كتاب فى أصول الفقه) .

أحكـــام القرآن

يعتبر كتاب أحكام القرآن الذى ألفه الهراس واحداً من أشهر التآليف التى تعنى بآيات الاحكام فهما واستنباطا واستخراجاً للأصول منها حيث تظهر الثروة الكبيرة فى مجال الفقه والتشريع الاسلامى .

وقد راعى مؤلفه فيه الايجاز والاختصار والاقتصار على اللباب فجاء كتابه وافيا فى بابه نافعا لقارئه .

والكتاب يعد من أول الكتب المؤلفة فى أحكام القرآن على مذهب الإمام الشافعى حيث استخدم منهجه وسلك مسلكه وسار على طريقته فضم بذلك -إلى جانب ما ألفه غيره من أتباع أبى حنيفة ومالك رحمهما الله نظرة تكاد تكون متكاملة على الجانب التشريعى للقرآن الكريم .

يقول الهراس اثناء مقدمته لهذا الكتاب :

"وبعد : فإنى لما تأملت مذاهب القدماء المعتبرين ، والعلماء المتقدمين والمتأخرين ومذاهبهم وآراءهم ولحظت مطالبهم وأبحاثهم . رأيت مذهب الشافعى رضى الله عنه وأرضاه اسدها وأقواها وأرشدها وأحكمها حتى كان نظره فى كبر آرائه ومعظم ابحاثه يترقى عند حد الظن والتخمين إلى درجة الحق واليقين .

ولم أجد لذلك سببا أقوى وأوضح وأوفى من تطبيقه مذهبه على كتاب الله تعالى :

(الذى لا يَأتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت:٤٢)

وأنه اتيح له درك غوامض معانيه ، والغوص على تيار بحره لاستخراج مافيه . وان الله فتح عليه من أبوابه ويسر عليه من أسبابه ورفع له من حجابه ما لم يسهل لمن سواه ، ولم يأت لمن عداه فكان على ما أخبر الله تعالى عن ذى القرنين فى قوله : (وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً) (الكهف:٨٤-٨٥)

ولما رأينا الأمر كذلك اردت أن اصنف فى احكام القرآن كتابا اشرح فيه ما انتزعه الشافعى رضى الله عنه من أخذ الدلائل فى غوامض المسائل وضممت إليه ما نسجته على منواله . واحتذيت فيه على مثاله على قدر طاقتى وجهدى ومبلغ وسعى وجدى .

ثم يقول :

ولن يعرف قدر هذا الكتاب ومافيه من العجب العجاب إلا من وفو حظه من علوم المعقول والمنقول ، ومتبحر فى الفروع والأصول ثم اكب على مطالعة هذه الفصول بمسكة صحيحة وقريحة نقية غير قريحة.

وأعوذ بالله من الاعجاب بالابداع والميل بالهوى إلى بعض الآراء فى مظان النزاع . وأسأله أن يجعل مجامع مساعينا وجل متاعبنا فى طلب مرضاته إنه ولى قدير وبالاجابة جدير فأقول :

لما رأيت أقاويل المفسرين فى أحكام القرآن متجاوزة حد البيان آخذة بطرفى الزيادة والنقصان ، جررت فى سرجها هذه الفصول المتضمنة من اللفظ والمعنى شفاء كل عليل مع انتخابى فيها قصد السبيل، وتوقى التعليل والتطويل ..

وقد انتفع بهذا الكتاب الكثيرون من العلماء واثنوا عليه الثناء المستطاب واعتمدوا عليه فى تأليفهم بعده حتى قال عنه ابن العربى الذى جاء بعده فى مقدمة كتابه أحكام القرآن .

إن مؤلفه أتى فيه بالعجب ، ونثر فيه لباب الألباب وفتح فيه لكل من جاء بعده إلى معارفة الباب ، فكل أحد غرف منه على قدر انائه .

نموذج من "أحكام القرآن "

قوله تعالى: (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها)(البقرة: من الآية١١٤)

قوله " منع " نزل فى شأن المشركين حين منعوا المسلمين من ذكر الله تعالى فى المسجد الحرام وسعيهم فى خرابه بمنعهم من عمارته بذكر الله وطاعتها وقوله (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين)

يدل على ان المسلمين اخرجوهم منها إذ دخلوها.

ويدل على مثل ذلك قوله تعالى:

(ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله)(التوبة: من الآية١٧)

وعمارتها تكون ببنائها واصلاحها والثانى حضورها ولزومها، كما يقال:-

فلان يعمر مسجد فلان ، أى يحضره ويلزمه.

قوله عز وجل

(ولله المشرق والمغرب)(البقرة: من الآية١١٥)

ويدل على جواز التوجه إلى الجهات فى النوافل، وللمجتهد جواز التعبد بالجميع.

قوله تعالى:

(وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن)(البقرة: من الآية١٢٤)

دلت على أن التنظف ونفى الأوساخ والاقذار عن الثياب والبدن مأمور به وقد قال سلمان بن فرج أبو واصل اتيت أبا أيوب فصافحته فرأى فى أظافرى طولا فقال: جاء إلى النبى عليه السلام رجل يسأل عن اخبار السماء فقال:

يجئ أحدكم يسأل عن خبر السماء واظفاره كإنها أظفار الطير يجتمع فيها الوسخ والتفث؟

قوله تعالى: - (إني جاعلك للناس إماما)(البقرة: من الآية١٢٤)

الأمام : من يؤتم به فى أمر الدين كالنبى عليه السلام والخلفية والعالم اخبر الله تعالى إبراهيم انه جاعله لناس إماما . وسأل إبراهيم ربه أن يكون أبناؤه أئمه فقال تعالى:

(لا ينال عهدي الظالمين)(البقرة: من الآية١٢٤)

ودل قول تعالى

(لا ينال عهدي الظالمين)(البقرة: من الآية١٢٤)

على أن الإجابة قد وقعت له فى ان من ذريته أئمة ولكن لا إمامة لظالم حتى لا يقتدى به. ولا يجب على الناس قبول قوله ففى أمر الدين.

نعم: كان يجوز ان تظهر ا لمعجزة على يد فاسق ظالم. ويجب قبول قوله لوجود الدليل ، وان لم يجب قبول قول الفاسق لعدم ظهور الصدق وعدمه عقلا غير ان العصمة وجبت للأنبياء سمعا.

ويجوز عقلا وجوب قبول قول الفاسق ولكن دلت هذه الآية على ان عهد الله تعالى لا ينال الظالمين.

فيحتمل أن يكون ذلك النبوة، ويحتمل أن يكون ما اراد لهم من أمر دينه. وأجاز قولهم فيه، وأمر الناس بقبوله منهم.

ويطلق العهد على الأمر قال الله تعالى:

(إن الله عهد إلينا)(آل عمران: من الآية١٨٣)

يعنى امرنا وقال:

(ألم أعهد إليكم يا بنى آدم) (يس : من الآية ٦٠)

يعنى ألم اقدم إليكم الأمر به:

وإذا كان عهد الله هو اوامره ، فقوله (لا ينال عهدي الظالمين) لا يريد به انهم غير مأمورين لأن ذلك خلاف الاجماع، فدل على ان المراد به أن يكونوا بجملة من قبل منهم أوامر الله، ولا يؤمنون عليها.

أ.د/منيع عبد الحليم محمود
عميد كلية أصول الدين بالقاهرة
جامعة الأزهر